

الأدب العربي في شبه القارة الهندية

(١) الخصائص ومحاولات التجديد *

د. أحمد إدريس

ما المقصود بالأدب العربي في هذا المقال؟

الحقيقة أن الباحث في هذا المجال لا يستطيع أن يحصر المؤلفات العربية في شبه القارة إذا اعتبر الأدب العربي - كما فعل كثير من الباحثين قديما وحديثا وشرقا وغربا - هو كل ما كتب باللغة العربية ، ذلك أنه سيواجه تلالا من المصنفات في الحديث وعلومه، وفي التفسير والفقه والتصوف والفلسفة والحكمة والكلام والمنطق والمناظرات والعقيدة وعلوم القرآن والرجال والجغرافية والطب والطبقات واللغة والانشاء والرسائل والشعر والعروض والبلاغة والمعاجم والنحو وغير ذلك مما يحتاج اثباته الى أسفار وموسوعات لن تخرج في النهاية عن كونها مجرد قيد وتدوين لهذه المؤلفات ومؤلفيها دون فحص لمحتويات هذا الأدب لمعرفة ما له وما عليه. فأميز مثل النواب صديق حسن القنوجي المتوفى في ١٣٠٧هـ له ستة وخمسون كتابا باللغة العربية، وللشيخ أحمد رضا البريلوي المتوفى ١٣٤٠هـ ثلاثمائة مصنف كما للشيخ عبد الحى بن عبد الحليم اللكنوى المتوفى في ١٣٠٤هـ ستة وثمانون، وللشيخ أشرف على التهانوى المتوفى في سنة ١٣٦٢هـ ثلاثة عشر كتابا، فكيف يمكن الحديث بانصاف - اذن - عن الأدب العربي في شبه القارة التي أنجبت خلال

* هذا المقال جزء من كتابي «الأدب العربي في شبه القارة الهندية حتى اواخر القرن العشرين» الذي مازال مخطوطاً بمكتبة كلية اللغة العربية بالجامعة الإسلامية العالمية ومكتبة مجمع البحوث الإسلامية في اسلام آباد وهو أول كتاب عن هذا الموضوع.

ما يزيد على سبعة قرون من غلبة المسلمين عليها ألوفا من العلماء والادباء اذا أدخلنا في نطاق الأدب العربي كل ما كتب باللغة العربية ؟ فضلا عن أن هذا المفهوم الواسع يجعل الأدب العربي مرادفا للثقافة الإسلامية التي يحتاج تدوينها ونقدها الى أعمار قد لا تتاح لفرد واحد .

لذلك أخرجنا من نطاق بحثنا ما يتعلق بالدراسات الإسلامية والطبقات والترجمات، وقصرناه على الشعر وما يتصل من النشر بفنون اللغة العربية بسبيل كالنحو والصرف وعلم اللغة والمعاجم والانشاء والبلاغة والمقامات والأمثال، فتحدد معنى الأدب في مقالنا بهذا الذي ذكرناه.

وبع ذلك فقد أدخلنا فيه نموذجا واحدا من التفسير العربية وهو تفسير سواطع الالهام لأبي الفيض الفيضى المتوفى عام ١٠٠٤ هـ لكونه يمثل صنعة لغوية هي الكتابة غير المنقوطة بصرف النظر عما فيه من تفسير، فالكتات تفسير للقرآن كله من قبل أعجمى باللغة العربية ليس فيه حرف منقوط، ومن ثم ارتبط بموضوعنا.

وكما أن مفهوم الأدب العربي في شبه القارة يضيق ويتسع، كذلك فإن مفهوم شبه القارة يكبر ويصغر. فالهند في عصورها الإسلامية لم تثبت عند حدود جغرافية بعينها، وانما أخضعها للمد والجزر رغبة سلاطينها، وبصيرتهم الإدارية، ووضعهم السياسى، وعلاقاتهم بالدول المجاورة حبا وبغضا، وأحيانا طمعهم في الثروات، فكانت تضيق حيناً وتوسع أحيانا، فان اتسعت دخل في زمرة أدبائها جهابذة مثل بديع الزمان والبيرونى والخوارزمى والزوزنى وغيرهم ممن ارتبطوا بمراكز الثقافة العربية في هرات وغزنة وغيرها، وان انكمشت خرجوا.

ونحن في تحديدنا للمقصود بشبه القارة جغرافيا اقتصرنا على الهند وباكستان - كما هما اليوم - فصار المراد بشبه القارة هو شبه القارة الهندية الباكستانية.

وننتج عن تحديدنا لشبه القارة تحديد آخر لمن يخرج من زمرة أدبائنا في هذا البحث ومن يدخل فيها، فأخرجنا قوما وأدخلنا آخرين.

أخرجنا من هاجر أبائهم الى ديار العرب وولدوا هم بها، وتربوا في أهلها، ونشأوا على ترابها كابن الأعرابي، وأبي الغراف السلمي وأعشى همدان والمنتجع بن نبهان وكشاجم محمود بن الحسن^(١) وكثير آخرين، لكننا أدخلنا من هؤلاء أبا عطاء السندی لأنه يمثل ظاهرة تمس بحثنا، اذ رغم ولادته ونشأته في ديار العرب، بقي على عجمته في النشر، لكنه اشتهر بشعره كما سيأتيك بيانه.

وأخرجنا أيضا من ارتبط ببلاط سلطان من سلاطين الهند وكان من قوم آخرين، وهؤلاء جمع غفير كذلك أخرجنا من جاء من العرب الى هذا السلطان أو ذاك طمعا في البذل والعطاء، فألف له كتابا في فن يعجبه، ثم بقي في الهند آخر حياته كمحمد بن أبي بكر بن عمر الدماميني المصري الذي اتصل في أواخر عمره ببلاط أحمد شاه أحد سلاطين الكجرات (٨١٤-٨٤٦هـ) وكتب له كتابه المعروف بتعليق الفرائد، وهو شرح لتحصيل الفوائد وتكميل المقاصد في النحو لابن مالك.

واستثنينا من هؤلاء أبابكر بن محسن باعبود صاحب المقامة الهندية لأنه هاجر من اليمن في سن مبكرة وعاش ومات بها، وفسدت لغته العربية وغلبت

١ - راجع سيرة هؤلاء تحت أسمائهم في رجال السند والهند الى القرن السابع للقاضي أبي المعالي أظهر المباركوري، مصر ١٣٩٨هـ.

عليها هندية في مواقع كثيرة.

وأخرجنا من عاش في الهند من شعراء وأدباء العرب حيناً طال أم قصر، طوعاً كان عيشه فيها أم كرها، كالبحتري وذى الرمة ومنصور بن حاتم النحوي وابن المهلهل البغدادي ومطيع بن اياس وابن عنين ويزيد بن مفرغ وأحمد بن أبي نعيم وغيرهم^(٢).

ثم قصرنا بحثنا - بعد ذلك - على من كانت أرومته هندية نقية، وولد ونشأ في شبه القارة - بالتحديد الذي ذكرناه - ولو تنقل من بعد في ديار العرب، واختلط بأهلها كالصفاني ومرتضى الزبيدي وآخرين.

وأنت ترى أن الإخراج والادخال خضع لأسباب فنية جلية ، إذ المراد من بحثنا التعرف على الأدب العربي الذي كتبه أبناء شبه القارة، لا من عداهم، وكنا في ذلك كله مقيدين بما توفر في أيدينا من مادة قليلة يوجد أفضل وأغزر منها في مكتبات آخر.

وراعينا - مع ذلك - أن تغطي هذه المادة قدر المستطاع دهراً طويلاً امتد من العصر الأموي إلى القرن العشرين الميلادي، ولم نضرب صفحاً عن هذا أو ذاك من الأدباء حاجة في نفوسنا بل لأن إنتاجه لم يصل إلى أيدينا أو لم تصل أيدينا إليه. كما أن كل عالم دين من مفسر أو محدث أو فقيه في شبه القارة - تقريباً - قرض الشعر أو كتب الرسائل، وترك ديواناً - صغر أم كبر - أو مجموعة رسائل أو كتاباً في فن من الفنون ، طبع أم ما زال مخطوطاً، والوقوف على كل هذا التراث أمر - كما تعلم - عسير . فما تيسر لنا تناولناه

٢ - راجع سير هؤلاء تحت أسمائهم في المصدر السابق.

بالشرح والتعليق، وما صعب علينا تركناه دون تحمل عناء السفر الى البلدان، ونفض التراب عما في مكتباتها.

خصائص الأدب العربي في شبه القارة:

لكل أدب - بلا ريب - خصائص عامة ترسم سماته الرئيسية، وهذا ما نتناوله هنا تناولا خفيفا عاما ، تاركين التفاصيل الفنية لكل ضرب من فنونه الى ما بعد، حين نفحص كل فن منها على حدة.

فأول ما نراه من خصائص لهذا الأدب العربي: أنه أدب لم يساهم العرب فيه مباشرة كما لم يأخذه الهنود عن أصحاب اللغة وأهلها بلا واسطة، وإنما أخذوه عن عجم آخرين مثلهم فكان أدبا عربيا أنتجه الهنود وهم ليسوا عربا، بعد أن تعلموا العربية على يد الفرس وهم عجم .. هكذا كان في أغلبه. فالذين نشروا الإسلام ولغته وعلومه في شبه القارة كانوا عجماء ولم يكونوا عربا، وهذه نقطة هامة سنرى آثارها على هذا الأدب ونحن نبحث في تفاصيله.

وتحقيق ذلك أن غزوات العرب في بلاد السند لم يكن لها الأثر الذي بالغ بعض المؤرخين في ذكره وتصويره، كما أن الصلات بين العرب والهنود وان تعاظمت قبل الإسلام الا أن مؤرخينا أهملوا العصر الجاهلي، ثم لما أعادوا صياغته اعتبروه شرا كله وكفرا وفسوقا فضاعت حقيقة تاريخ هذا الدور، ومن هنا لم نقف على شيء من التأثير والتأثر على نحو أدبي واضح باستثناء نتف متناثرة هنا وهناك.^(٣)

٣ - لمزيد من التوضيح انظر تاريخ العرب القديم، د. توفيق بروج، ص ١٦ وما بعدها، دمشق ١٩٨٤ والمفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، د. جواد علي ٢٤٠/٧ وما بعدها ، بيروت ، ١٩٨٠.

وكما بالغ مؤرخونا في تشويه وطمس ما كان في عصور ما قبل الإسلام بين العرب وغيرهم بل وما كان في البيئة العربية ذاتها، بالغوا أيضا في صياغة الحروب والغزوات ومنها غزوة محمد بن قاسم فنسبوا إليه نشر الإسلام ولغته في الهند، وما في قولهم شئ من الانصاف.^(٤)

نعم أسفرت حملته عن استقرار بعض الأسر العربية في السند كالمهانية في سنجان (١٩٨-٣٢٧هـ) والهبارية في المنصورة (٢٤٧-٤١٦هـ) والسامية في ملتان (٢٨٠-٣٦٠هـ) والمعدانية في مكران (٣٤٠-٤٧١هـ) والمتغلبية في قصدار على ما ذكر بعض المؤرخين^(٥) إلا أن هذه الأسر بقيت في أماكنها في الجزء الشمالي الغربي في مقاطعة السند (فلم يكن فتح العرب للسند إلا احتلالا لولاية واحدة في أقصى الغرب، لا هي بالواسعة الرقعة ولا بذات الموارد الغنية والأرض الخصبة).^(٦) (لأن المسلمين خرجوا بعد قليل عن بلاد الهند ورفضوا مراكزهم، وقد كفر أهل الهند إلا أهل قصّة فلم ير للمسلمين ملجأ يلجأون إليه إلى أن وُجّهت إليها حملات في العصر العباسي).^(٧)

والواقع أن انتشار الإسلام وما تبع ذلك من انتشار لغته في شبه القارة الهندية كانت وراء عوامل أخرى أقلها تأثير حملة ابن قاسم منها أن بعض

٤ - انظر مثلا تاريخ الإسلام في الهند لعبد المنعم النمر ص ٧٤ مصر ١٩٥٩، تاريخ العالم الإسلامي د. محمد الطيب النجار ١٨٥-١٨٧، جده ١٩٨٥ وفتوح البلدان للبلاذري ٤٤٣-٤٤١، لندن ١٨٦٦. وحركة التأليف باللغة العربية د. جميل أحمد ص ٥، كراتشي بدون تاريخ. ومؤلفات أطهر المباركوري.

٥ - هندوستان مين عربون كى حكومتين، القاضي أبو المعالي أطهر المباركوري، كراتشي ١٩٦٧، ص ٢٢

٦ - تاريخ المسلمين في شبه القارة: د. أحمد محمود الساداتي، ٨١/١ مصر - ١٩٥٧.
٧ - فتوح البلدان: ٤٤٣ - ٤٤٤.

حكام الهند مثل الملك زامورين فى ساحل مالابار فى القرن التاسع الميلادى أراد التودد الى المسلمين ودولتهم القوية سياسيا واقتصاديا حفاظا على مصالحه، فأصدر أمرا يفرض على كل أسرة من السماكين فى دولته أن تبنى واحدا أو اثنين من أبنائها على الديانة الإسلامية^(٨) وهذا نموذج لعله تكرر فى ولايات ومملكات هندية أخرى تماما كما تفعل الدول الصغرى فى عصرنا مع القوى العظمى بمختلف الأساليب.

ومنها أن المجتمع الهندى فى زمان ازدهار الدولة الإسلامية ساهى الضعف السياسى بسبب الصراع الدامى بين الديانات الهندوسية والبوذية والجينية ومن تبع كلا منها من الملوك فكانت الهند مشغولة بانقساماتها، مستاءة من دياناتها، تتوق الى جديد وتشتاق الى معرفة دين تلك الدولة العظمى التى يفصلها عنها بحر يعبره تجارها ويحملون معهم أخبارها^(٩)

غير أن أهم عاملين فى نشر الإسلام ولغته العربية هما:

الأول: هجرة العلماء على نحو واسع من أكناف الدولة الإسلامية فى فارس وما وراء النهر بسبب القلاقل السياسية بحثا عن ملجأ آمن يستقرون فيه سواء فى عصر اضمحلال الدولة العباسية وما صحبه من نشوء دويلات مختلفة فى بلاد فارس، أو بعد سقوط الخلافة العباسية واجتياح المغول لها، واحراقهم وتدميرهم للمكتبات ودور الثقافة الإسلامية ومراكزها، ولم يكن أمام العلماء الا الاتجاه من الشمال الى الجنوب طلبا للأمن والدعة عند ملوك الدول

٨ - تاريخ الإسلام فى الهند ، ص ٦٧ .

٩ - تمدن هند پر اسلامى اثرات، د. تاراچند، الترجمة الأردية، لاهور ١٩٦٤، ص ٥٩ وانتشار الإسلام فى العالم، د. عبد الله الطرازى: ٤١/١، جدة ١٩٨٥ .

التي نشأت في الهند من القرن الحادى عشر حتى القرن الثامن عشر الميلادى ومن بينها دول فنية شجع سلاطينها العلم والعلماء، كالدولة الغزنوية والغورية والمغولية. هؤلاء العلماء أسسوا مدارس تحولت الى مراكز اشعاع، انخرط فيها الطلاب.

الثاني: أقطاب العرفان الذين ساحوا في شبه القارة منذ أيام الغزنوى في القرن الخامس وظلوا يفدون الى الهند من بلاد فارس حتى القرن الرابع عشر كالشيخ الهجویری والشيخ اسماعيل البخارى وفريد الدين العطار ومعين الدين الجشتى وجلال الدين التبريزى وجلال الدين البخارى وبابا فريد شكرکنج وعبد الكريم الجبلى تلميذ ابن عربى ومير شاه الجيلاني وبهاء الدين زكريا وقطب الدين بختيار كاکی وجلال الدين سرخ پوش وغيرهم^(١٠)

أما التأثير العربي المباشر في الأدب العربي في شبه القارة فكان في ساحل مليبار بجنوب الهند أكثر وأوضح بعد أن استقرت به بعض الأسر الفارة من اضطهاد الحجاج ثم تلتها قوافل التجار خاصة في العصر العباسي، ولكن ما يؤسف له أن مصادر هذا التأثير لم يصل الى أيدينا منها الا قليل كما سيأتى بيانه وان كان هذا لا يعنى عدم وجود مصادر وافية بلغات هذه المنطقة وفي مكتباتها وتحتاج الى من يكشف عنها من الباحثين. وما ينبغى ذكره هنا هو أن الأدب العربي في ساحل مليبار الذى يقطنه الشافعية من المسلمين الهنود - وهو ما سندرس نماذج منه - يعتبر نموذجاً للتأثير العربي المباشر في شكل جماعى يمكن دراسته كظاهرة أدبية على عكس الحال في شمال شبه القارة الذى تأثر الأدب العربي فيه في أغلبة بالثقافة الفارسية. ومع ذلك فان التأثير العربي المباشر في شمال شبه القارة

لمسناه في شكل حالات فردية انصبت في معظمها على الفرص التي أتاحت لهذا أو ذاك من الأدباء في الاتصال بالبيئة العربية والاستفادة منها فاختلف أسلوبه عن أساليب الآخرين كما سنرى في باب النثر عند الحديث عن أعمال رضى الدين الصفاني ومرضى الزبيدي وعبد العزيز الميمنى، لكن هذا التأثير بقى كما قلنا رهن ظروف كل فرد على حدة، فكأن التأثير الفارسي ساد أغلب انتاج الأدباء في الشمال، بينما ساد التأثير العربي معظم انتاج أدباء العربية في الجنوب.

وقصدنا من هذا كله باختصار أن الإسلام واللغة العربية زحفا على أغلب الهند عبر فارس يشهد بذلك أهل الهند نفسها كما يشهد به أهل الغرب.

يقول الدكتور عبد الله مبشر الطرازي أن أول حملة بحرية للعرب على سواحل الهند كانت عام ١٥ هجرية في عهد عمر بن الخطاب بقيادة عثمان بن أبي العاص واليه على البحرين دون أمر الخليفة الذي غضب عليه وهدده وتوعده ثم وافق بعد ذلك على فتح الهند ولكنه اشترط أن تكون الحملة حملة برية عن طريق بلاد فارس^(١١) بل أن حملة ابن القاسم وحملة الخراساني في العصر العباسي تمت عن طريق فارس^(١٢)

ويقول عبد الحى الحسنى اللكنوى "أعلم أن الإسلام ورد الهند من جهة خراسان وما وراء النهر فانعكست أشعة العلم على الهند من قبل تلك البلاد"^(١٣)

١١ - انتشار الإسلام في العالم : ٤٦/١ .

١٢ - فتوح البلدان : ٤٣٧ .

١٣ - الثقافة الإسلامية، دمشق ١٩٨٣ ، ص ٩ .

ويقول جوستاف لوبون : "فغزاة المسلمين الأولون كانوا من الأفغان والترك وغزاة المسلمين الآخرون كانوا من المغول مع شئ من التمازج، وأما العرب الذين هم من أتباع محمد السابقين فلم يقيموا مستعمرات مهمة في الهند وإن كانوا يجيئون إليها في الغالب من بلادهم مجاوزين بحر عمان للتجارة فينشئون المستودعات ويستولون عنوة على أملاك في السواحل الغربية نحو نهر السند" (١٤)

"فمسلمو الهند لم يُدخلوا الى الهند في الحقيقة سوى حضارة العرب بعد أن تحولت بعض التحول في بلاد فارس بفعل الأزمنة والأمكنة والاختلاط بالشعوب المغلوبة وذلك على درجات مختلفة ومع دوامها على التحول، وأدخل المسلمون معهم الى الهند نظم الدول العربية القديمة السياسية أيضا وكانت هذه النظم السياسية تحمل في تضاعيفها المحاسن التي أدت الى ازدهار الدول العربية فيما مضى والمساوئ التي أوجبت انحطاطها" (١٥)

هذا الاستطراد التاريخي اضطررنا اليه اضطرارا لأن السائد بين الدارسين أن ابن القاسم هو صاحب الفضل في نشر اللغة العربية والدين الحنيف في شبه القارة، وليس هذا بصحيح فإن اللغة العربية انتشرت بانتشار الاسلام على أيدي العجم وكان أكثرهم من أهل فارس وإنما أردنا تأكيد هذه الحقيقة ونحن بصدد الحديث عن خصائص الأدب العربي في شبه القارة لنعرف مكانة هذا الأدب وما عمل فيه من موثرات، ولننظر اليه نظرة تقدير لكونه أدبا عربياً أنتجه عجم خلص دون أن يكون للعرب فيه أكبر يد.

١٤ - حضارة الهند، الترجمة العربية، مصر ١٩٤٨، ص ٤١٨ .

١٥ - نفس المصدر ص ٤٢٢ .

ومن أراد الاطلاع على حقيقة أن العرب ما اهتموا بنشر اللغة العربية وكتبها في شبه القارة كما اهتم بذلك المستشرقون والهندوس حتى أن منشى نولكشور الهندوسى نشر أربعة آلاف كتاب معظمها من الكتب العربية والفارسية، فليراجع مقال الدكتور أحمد خان عن اسهام علماء شبه القارة في نشر الكتاب العربي، وهو مقال تناول بالتفصيل تاريخ دخول الطباعة في شبه القارة ودور المستشرقين والادارات العامة والخاصة والمؤسسات العلمية في الهند وباكستان في نشر الثقافة العربية، والمقال قرئ في الموسم الثقافي الدولي بالكويت في نوفمبر عام ١٩٩٣ م^(١٦)

ومن الأدباء من صرح بكون الفارسية وسيطا له من النفوذ والأثر مثل محمد زمان خان (ت ١٢٩٢ هـ) في كتابه سفينة البلاغة في صناعة الانشاء والرسائل حيث قال في مقدمته:

"... غير أني غيرت ترتيب الكلام حيثما اقتضاه المقام، واختصرت بعض التراكيب أخذا للمرام وحين نقلت بعض المأرب من الكتب الفارسية صرت ترجمانا بين العجم وأهل العربية"^(١٧)

ومنهم من خلط الفارسية بالعربية في نظمه مثل محمد عباس التستري (ت ١٣٠٦ هـ) في منظومته أجناس الجناس، وأحمد الرسولبورى (ت ١٣٥٩ هـ) ومنهم من نقل المحسنات والبدايع الفارسية وتأثر بها حتى صار شعره

١٦ - أطلعنى الدكتور أحمد خان رئيس قسم احياء التراث الإسلامى بالجامعة الإسلامية الدولية بإسلام آباد على هذا المقال قبل سفره الى المؤتمر.

١٧ - سفينة البلاغة : ص : ١٢ - ١٣ ، الهند ١٣١١ هـ .

العربي بعيدا عن مزاج اللغة وأهلها مثل غلام على آزاد البلكرامى (ت ١٢٠٠ هـ).

وقد عقدت في اسلام آباد ندوة دولية في سبتمبر عام ١٩٩٣ م عن الروابط الثقافية بين ايران وشبه القارة ثم طبعت أبحاث المشاركين فيها في مجلدين يمكن لمن أراد المزيد مراجعتها ففيها كثير من الجوانب الهامة التي يضيق المجال لذكرها هنا، ونشير الى مقال الدكتور ساجد الله تفهيمى ومقال على جنتى ومقال الدكتور غلام سرور ففى هذه المقالات مادة كثيرة تؤيد ما نريد قوله هنا. (١٨)

ولنا أن نتخيل مدى تأثير الفارسية على بيئة الثقافة والأدب في شبه القارة من كتاب الأستاذ أحمد كلجين معانى المسمى بـ (كاراوان هند) أى قافلة الهند والذي يقع في مجلدين عظيمين حيث أعد فيه قائمة بالشعراء الفرس الذين هاجروا الى شبه القارة في العهد الصفوى فقط بسبب عدم تشجيع الصفويين للأدب وسبب الأوضاع السياسية في ايران آنذاك، وقد بلغ عدد هؤلاء ما يقرب من ثمانمائة شاعر (١٩)

والذى لا شك فيه أن هجرات العلماء والأدباء من فارس الى شبه القارة كان لها أكبر الأثر في نشر الأدب والدين واللغة العربية في شبه القارة وهو ما لم يتيسر للعلماء والأدباء العرب الذين بقوا مقطوعى الصلة عن منطقتنا في أغلب الأحوال فلم يكن لهم تأثير يذكر.

١٨ - مجموعة سخنرانيهاى نخستين سمينار پيوستگيهاى فرهنگى ايران وشبه قاره، ج

٢٠٨/١ - ٢١٤، ١٦/١ - ٢٠، ٢١/١ - ٢٣. طبع باكستان ١٩٩٣ م.

١٩ - كاراوان هند، أحمد كلجين معانى، ايران ١٣٦٩ هـ ش.

ومن خصائص الأدب العربي في شبه القارة - ثانيا - أنه أدب نشأ حول الدراسات الإسلامية وفي أحضان المدارس الدينية، فلا عجب أن نرى فيه كثيرا من الشروح للكتب التي أدخلها العلماء في مقررات الدرس في مجال الأدب كالمعلقات وديوان المتنبي ومقامات الحريري والمطول والكافية والشافية وديوان الحماسة وقصائد البردة وبانت سعاد وألفية ابن مالك . ومع أن أدبا كبديع الزمان الهمداني جاء الى الهند واشتهر أمره فيها زمان السلطان محمود الغزنوي واشتهرت مقاماته ورسائله بين أدبائها وعلمائها وتوفى في ٣٩٨هـ بينما توفى الحريري في ٥١٦هـ، إلا أن شيئا من مقاماته أو شعره أو رسائله لم ينل حظه من اهتمام أدباء العربية في الهند رغم رقة مقاماته وجودة رسائله وعذوبة شعره. فلم أعثر إلا على شرح واحد لمقاماته ذكره عبد الحى الحسنى في الثقافة الإسلامية بعنوان الياقوت الرماني شرح مقامات الهمداني لوكيل أحمد السكندربوري^(٢٠) وليس ذلك إلا لأن كتب الهمداني لم تكن داخلة في مناهج المدارس الدينية. وقد ذكر الحسنى في كتابه مناهج هذه المدارس في أدوارها المختلفة وما أدخله علماء إيران فيها من كتب ذكرها مفصلا فليرجع اليه من يشاء^(٢١)

ولأنه أدب نشأ حول الدراسات الإسلامية نجد أدباءه إذا صنفوا في فنون الأدب المحضة أصروا في مقدمات كتبهم على أن هذا خدمة للدين ولغته، أو ربطوا بين موضوع الكتاب وبين الدين بشكل أو بآخر، فصديق حسن القنوجي (ت ١٣٠٧هـ) يقول في مقدمة كتابه "نشوة السكران من صهباء تذكارات الغزلان":

٢٠ - الثقافة الإسلامية : ص ٥٤ .

٢١ - نفس المصدر : ص ٩ وما بعدها .

"نحمد من زين رياض الوجوه بنرجس اللحاظ وورد الخدود وثمر أغصان القدود برمان النهود حمد من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى وشبب بذكر محبوبه ان كان تهاميا في حجاز أو شاميا في توى. ونصلى ونسلم على من حث على تهذيب النفس الأبية عن الرذائل الدنية سيدنا محمد وعلى آله وصحبه الذين يحبهم ويحبونه، ويقفون عندما أمرهم ولا يتعدونه، ما ذر شارق وهام عاشق وبعد، هذا بيان العشق والعشاق والمعشوقات من النسوان وما يتصل بذلك من تطورات الصبوة والهيمن.." (٢٢)

وفي مقدمة ديوان أحمد الرسوليوري : "لا يخفى أن علم العربية من العلوم الدينية الإسلامية كما لا يخفى أن مسلمي الهند ومن أقدم العصور بذلوا سعيهم في سبيل تعليم اللغة العربية ونشر المعارف الأدبية وكيف لا وبين الإسلام وبين علم اللغة العربية علاقة لا يستغنى عنها كل من أراد علم الدين والشرعة" (٢٣)

ومن خصائص الأدب العربي في شبه القارة - ثالثا - أنه أدب سلطاني تمحور حول الأبلطة، ورعاه السلاطين والأمراء والأغنياء، ومن ثم فهو أدب مبتور الصلة بالواقع، يمدح السلطان لأنه يبسط يده بالنعيم والعطايا، ويرثيه اذا مات، أو مات له قريب، أما البؤساء والفقراء والمجتمع بصورته الحقيقية فلا ذكر له في هذا الأدب ذلك لأنه يدور مع السلطان حيث دار، حتى المناهج التعليمية في المدارس الدينية وضعت تحت اشراف الأمراء والسلاطين والأغنياء (٢٤)

٢٢ - نشوة السكران : ص ٢ ، الهند ١٢٩٤ هـ .

٢٣ - ديوان أحمد : ص ١ ، الهند ١٩٥٨ م .

٢٤ - المسلمون في الهند، أبو الحسن الندوي ، ص ٨٤ ، الهند ١٩٨٧ م وانظر حركة التأليف باللغة العربية في الاقليم الشمالي الهندي، د. جميل أحمد : ص ٥٤ ، كراتشي بيون تاريخ.

وتحركات الحركة الأدبية وفق حركة السلاطين وأمراء الدويلات في مختلف المدن الهندية "قلما صارت ملتان مدينة العلم نهض منها كثير من العلماء، ثم لما صارت مدينة لاهور قاعدة الملك أيام الغزنوية صارت مركزا للعلوم والفنون، ثم لما افتتح الغوري مدينة دلهي وجعلوها عاصمة البلاد المفتوحة من الهند صارت مرجعا ومأربا للعلماء الى آخر الدولة التيمورية"^(٢٥) وكذلك حدث في كجرات والدكن وجونپور ولكنو وأوده بمدنها مثل بكرا م وهركام وجائس وكاكوري وخير آباد وغيرها.

ونظرا لأن السلطان - أي سلطان - لا يحب العلماء المعارضين لتصرفاته ونزواته المخالفة للدين الذي يحكم الناس باسمه، انقسم العلماء الى قسمين : أولهما لا يعارض، وهؤلاء عاشوا منعمين مترفين وثانيهما يقول كلمة الحق ويلقى في سبيلها الهوان والاضطهاد . ذلك أن ممارسات وسياسات أغلب سلاطين الهند لم يكن للإسلام فيها كبير اهتمام بل خالفوا الشرع في أكثر أمور حياتهم.^(٢٦)

جاء في مذكرات الملك جهانكير ابن الملك أكبر: "علمت وأنا في دلهي أن فتنة اشتعلت في قنوح فأرسلت كتائب لاطفائها فقتل ثلاثون ألفا من العصاة ، وأرسل عشرة آلاف رأس مقطوع الى دلهي، وصلبت عشرة آلاف جثة صلبا معكوسا في سوق الشجر المغروس على جوانب الطرق العامة، وعلى ما ترى من المذابح لم تفتأ الفتن تنشب في الهندوستان ، ولا تجد ولاية من ولايات الدولة لم يذبح فيها خمسمائة ألف شخص في عهدى وعهد أبي"^(٢٧)

٢٥ - الثقافة الإسلامية : ص ١٠ .

٢٦ - انظر تفاصيل ذلك في حضارة الهند ص ٤٢٩ وما بعدها .

٢٧ - نقلا عن حضارة الهند ص ٤٢٧ - ٤٢٨ .

ولعل رسائل الشيخ أحمد السرهندي الى أتباعه تصور لنا شيئاً من واقع المجتمع وسياسة من حكموا باسم الدين، يقول في رسالة له : "واحزنناه، واحسرتاه، وامصيبناه ... إن أتباع محمد صلى الله عليه وسلم وهو محبوب رب العالمين غرباء مهانون في بلادهم، وأعداء مكرمون. إن الباطل بارز منصور، وإن الحق مخذول مستور" ويقول في رسالة أخرى : "لقد أتى على الإنسان والمسلمين حين من الدهر في هذه الديار إذا عمل مسلم بحكم شرعى يسجن ويعاقب ويهان ويعذب، والديانات كلها حرة متمتعة بكل حق، لقد شمت بالمسلمين الأعداء ، وسخروا منهم، وأصبحوا هدفا لكل تجريح واهانة"^(٢٨)

لكن شيئاً من هذا كله لم يحرك قرائح الأدباء والعلماء، فلم نجد عنه حرفاً في ما أثر عنهم من نثر أو شعر عربى، لأن هذا الأدب سلطاني ولأن السلطان كان يعرف كيف يرضى الأدباء . فقد وزن الملك شاهجهان الملا عبد الحكيم السيالكوتي بالفضة مرتين كما وزن القاضي محمد أسلم الهروي مرة بالذهب^(٢٩) وكانت هذه طريقة السلاطين مع أدباء وعلماء البلاط، وكانوا يعطوهم هذه الأموال. وقد وقعت في عهد شاهجهان هذا مجاعات حتى ذبح الناس أولادهم وأكلوهم بفتوى من العلماء.^(٣٠) وفي عهده تغفل البرتغاليون، وسيطر تجارهم على الدولة وتعاضل خطر المبشرين.^(٣١) ولم يحرك شئ من هذا مشاعر أدبائنا، فبقى أدبهم حبس أسوار البلاط، لا يرى ما فى خارجها في أغلب الأحوال، وإذا رآه لم ينفع به.

٢٨ - الدعوة الإسلامية في الهند، أبو الحسن الندوى ص ١٦ ، الهند ١٣٧٨ هـ .

٢٩ - المسلمون في الهند ، أبو الحسن الندوى ص ١٠٦ .

٣٠ - تاريخ المسلمين في الهند : ١ / ٢٤ - ٢٥ .

٣١ - نفس المصدر : ١ / ١٩٢ .

وفي مقابل هؤلاء العلماء أحياء السلاطين، كان هناك أقطاب التصوف وأهل العرفان الذين شكلوا في الهند دولة داخل الدولة خلال جميع العصور الإسلامية تقريبا. لكن السلاطين كان لهم معهم أسلوب آخر. حكى الأستاذ أبو الحسن الندوي يقول: "كان السيد آدم البنوري دفين البقيع يأكل على مائدته كل يوم ألف رجل، ويمشى في ركابه ألوف من الرجال ومئات من العلماء. ولما دخل السيد في لاهور عام ١٠٥٣هـ كان في معيته عشرة آلاف من الأشراف والمشايخ وغيرهم حتى توجس شاهجهان ملك الهند منه خيفة فأرسل اليه بمبلغ من المال ثم قال له قد فرض الله عليك الحج فعليك بالحجاز، فعرف ايعاز الملك وسافر الى الحرمين حيث مات". (٣٢)

وتاريخ الهند ملئ بما فعله السلاطين مع من لم يخضع لهم من العلماء ، ومن الطريف أن أحد الباحثين هو الأستاذ السيد صباح الدين عبد الرحمن ألف كتابا ممتعا عن العلاقة بين سلاطين الهند المسلمين وبين العلماء والمشايخ، وكيف كان سلوك السلاطين مع المعارضين منهم وسلوكهم مع العلماء الدواجن، وقسم العلماء والمشايخ الى أقسام كأصحاب الفطرة الطاهرة النقية، والمشغولين بالتدريس والمدارس، ومعاوني السلاطين والحكام، والعلماء النفعيين، والشجعان الجاهرين بالحق، والناقدين للسلاطين وما الى ذلك ، فمن أراد المزيد فليرجع اليه. (٣٣)

والأدب العربي في شبه القارة - رابعا - لم يعكس العمق الحضارى الذي تيسر له بعد أن التقت على تراب أرضه حضارة فارس العريضة بحضارة

٣٢ - المسلمون في الهند : ص ١٣٦ .

٣٣ - هندوستان کے سلاطين، علماء اور مشائخ کے تعلقات پر ایک نظر، سيد صباح الدين

عبد الرحمن، ص ١١ - ٣٤ ، الهند ١٩٦٤م.

الهند الخصيبة. وكان بوسع أدبائه الاستفادة من الأدب الفارسي وأخيلته وتنوع موضوعاته شعرا ونثرا ، ويلقحونه بالآداب الهندية وأخيلتها، وانتاجها العريض المنظوم والمنثور، ثم تلد لنا قرائحهم بنات أفكار أدبية شكلا وموضوعا غاية في الحسن وآية في الجمال، خاصة وأنهم جميعا عرفوا الفارسية وكتبوا بها، وتزاوجوا بها وعاشوها ومارسوها بكل أبعادها ونظموا فيها، ولذلك اختلفت - تقريبا - القصة والرواية نثرا وشعرا من هذا الأدب، وكان بوسعهم الاستفادة من فن المثنوى في نظم الروايات التاريخية أو قصص العشق التي امتلأت بها بيئة الهند وراجت في الأدب الفارسي راجا كبيرا.

كذلك اختلفت القصة على لسان الحيوان وهو فن راج في الأدبين الهندي والفارسي. ولم أعثر الا على نظم واحد في هذا المجال لكليلة ودمنة ذكره عبد الحى الحسنى في الثقافة الإسلامية^(٣٤) مجرد ذكر ولا أظنه موجودا في المكتبات اذ لم يذكر مؤلفه بل قال لبعض علماء البواهر، أى طائفة البهرة.

واختص الأدب العربي في شبه القارة - خامسا - بتقليدية الموضوعات في أغلبه فمدح الرسول والأصدقاء والأمراء ورثاء الأحبة وأبناء الأمراء والسلطين والزهد والعرفان هى الموضوعات الأساسية التي شكلت العمود الفقرى للشعر العربى في شبه القارة، اللهم الا عند بعض الشعراء المتأخرين مثل فيض الحسن السهارنبورى في القرن العشرين حيث هجا مدينة لم تعجبه، وكتب مشاعره حين دخل اللصوص بيته وسرقوا متاعه.^(٣٥)

وتقليدية الموضوعات استلزمت عدم التجديد الا في قليل. أما الشكل فقد وقفنا على محاولات عند شعراء كالمفتى محمد عباس التستري الذى استفاد

٣٤ - الثقافة الإسلامية : ص ٥٤ .

٣٥ - ديوان الفيض ص ١٤ ، الهند ١٣٣٤ هـ.

من المثنوى (المزدوج) في منظومته أجناس الجناس، وآزاد البلكرامى الذي حاول ادخال الغزل - وهو قالب من قوالب النظم الفارسى والأردى - ليستوعب معانى عربية ، وكذلك نظمته في المستزاد والترجيع بند وهى قوالب تشبه الخمسات والمسدسات والمسمطات التي اشتهرت في عصور اضمحلال الشعر العربي في البيئة العربية، ومثل الرباعيات على الاوزان الفارسية التي نظمها محمد أفضل فقير (ت ١٩٩٣م) أو محاولة النظم الحر الحديث عند الدكتور خورشيد رضوى وهو شاعر معاصر.

غير أن هذه المحاولات في جلها لم يكتب لها الاشتهار لأنها اختارت قوالب هندية أو فارسية خالصة لم يعرفها العرب، باستثناء محاولة الدكتور رضوى. وقد ناقشنا ذلك كله بارتياح عند الحديث عن محاولات التجديد. وبالجمله فان الأدب العربي في شبه القارة لم يجدد أصحابه في الموضوعات بقدر ما حاولوا ذلك في القوالب والأشكال.

والخصوصية السادسة للأدب العربي في شبه القارة أنه أدب ارتبط بحقبة تاريخية معينة كانت للمسلمين فيها السيطرة على مقاليد الحكم حتى وان كانت سيطرة ضعيفة، فلما زال حكمهم واحتل الانجليز الهند اضمحل الأدب العربي فلما استقلت الهند انتهى الأدب العربي، وبقي تعليم اللغة العربية في المدارس الدينية والجامعات سيفاً خشبياً لا يفيد في شئ ، وأصبح تعلم اللغة للبحث عن عمل في دول العرب الثرية، لا لما فيها من أدب ولا لينتج الدارسون فيها أدباً. ذلك أن الانجليزية أصبحت لغة الحضارة فقضت على الفارسية والعربية وما ارتبط بهما من لغات وثقافة وأدب. أضف الى ذلك ضعف المناهج في مراكز تعليم اللغة العربية في الجامعات والمعاهد والمدارس الدينية،

وانقراض الأساتذة وقحط العلماء ، ثم عادت الروح إلى اللغة العربية في باكستان بعد انشاء الجامعة الإسلامية الدولية (١٩٨٠) التي قدم تلاميذها عشرات الرسائل العلمية المتعلقة بموضوعات الأدب العربي وفق المفهوم الذي ذكرناه وقائمة هذه الرسائل طويلة يضيق لذكرها المقام.

والخاصة السابعة لهذا الأدب أن نضجه لم يخضع لدورة الحياة الطبيعية في الآداب بحيث نستطيع تمييز أدواره ومميزات كل دور منها كما هو الحال عند الحديث عن الآداب الأخرى. فنشوء الآداب وارتقاؤها يقتضى أن تسير الحركة الأدبية سيرا طبيعيا فتنشأ ضعيفة، ثم يشتد ساقها وترق ثم تثمر الى أن تشيخ وتذبل، لكن هذا لم يحدث في الأدب العربي في شبه القارة. فالاغراق في الصنعة اللفظية مثلا عند أبي الفيض بن المبارك المتوفى عام ١٠٠٤هـ نجده أيضا عند عباس التستري في القرن الرابع عشر الهجرى، ونجده بعينه عند فضل حق الخير آبادى المتوفى ١٢٧٨هـ أى في القرن الثالث عشر الهجرى.

فأبو الفيض بن المبارك يقول في وصف كتابه سواطع الالهام: (٣٦)

صراح لأصل الأصل طرس مطهر سواد لكل الكل علس مطهم
امام همام للكلام مؤول صلاح سداد للسلام مسلم
مدار مراد للمدراك مطرح ملاك كلام للمعالم معلم

ويقول المفتى محمد عباس التستري : (٣٧)

٣٦ - نزهة الخواطر، عبد الحى الحسنى اللكنوى : ٣٠/٥ ، الهند ١٩٧٦م.

٣٧ - الثقافة الإسلامية : ص ٤٩ .

لطفت لنا وأنزلت الكتاب وتغفران يكن ذو الشرك تابا
هو المولى ونحن له عباد ومن سلخوا خلاف الشرع بادوا
يكرم بالعطايا من أتاه ومن يجحد بنعمته فتاهوا
ويقول فضل الحق الخير آبادي: (٣٨)
فؤادى هائم والدمع هامى وسهدى دائم والجفن دامى
وقلب ما فتى بجوى ولوع ولوع في اضطراب واضطرام

فأنت ترى في هذه الأمثلة أن الصنعة اللفظية هي ما يشغل قائلها على تباعد السنين والأعوام بينهم. كذلك لا نستطيع التفريق بين سهولة نثر عبد الحكيم السيالكوتى المتوفى ١٠٦٧هـ وبين أسلوب الصغانى المتوفى ٦٥٠هـ أو عبد الرحيم الصفى بورى المتوفى ١٢٦٧هـ، على أساس التقسيم الزمنى الى حقب وأدوار.

وهذه الخاصة في اعتقادنا تعود الى أن الأدب العربي في شبه القارة رغم عظمته قد غرس في بيئة غير بيئته فنما نمو غير طبيعى، فنحن ان جئنا ببذور أشجار وغرسناها في غير بيئتها قد تصح منها فرادى، ويموت ويذبل كثير، وينشأ بعضها أعوج السوق أو مريض الأغصان أو مر الثمار، فتبقى صحة النشأة مرتبطة بجودة البذرة، وحسن الغرس والتعهد لكل شجرة على حدة. وهكذا الأمر فيما وصل الى أيدينا من انتاج أدبى بعد فحصه ودرسه، فكل أديب من أدباء العربية في شبه القارة اعتمد انتاجه على مدى صلاحية

قريحته ومزاجه وحسه الأدبي وأستاذه وظروف تربيته وتعليمه وربما أصله، دون أن يكون للدور الزمني في رسم سمات انتاجه دخل.

ويرى الدكتور ظهور أحمد أظهر أن بعض هذه الخصائص كان له دخل في اضمحلال هذا الأدب علاوة على عوامل أخرى ، ففي مقال عن بواكير الشعر العربي في شبه القارة عدد هذه الأسباب كما يلي:

(١) القوة السياسية العربية كانت قد انتهت ولم تعد تمد الحكم العربي في السند وملتان وما إليهما من المناطق، تلك القوة السياسية التي تعول عليها اللغة دائما في السيادة والنفوذ والتي كانت قد جعلت من العربية لغة البلاط الحكومي والديوان في السند الغابر كما جعلت منها لغة التخاطب والسوق وقد انتهت هذه القوة السياسية بسبب ضعف الخلافة العباسية وانحطاطها ولم يعد الحكام والولاة يستمدون قوتهم واستنادهم من الخليفة في بغداد وإنما كان الحكم لمن غلب وقهر غيره خلال الجو الفوضوي الذي سبق الحكم الغزنوي في هذه المناطق التي تتكون منها باكستان اليوم.

(٢) وقد كان من الطبيعي أن تنقطع الصلات الثقافية المباشرة بين بلاد العرب وعواصمها الأدبية والثقافية وبين بلاد شبه القارة وذلك بعد نهاية الحكم العربي واستقلال المتغلبين من الحكام وحين سدت الطرق في وجوه المتوافدين من جهتين وانقطع التبادل الثقافي المباشر ولم يتصل بعد ذلك حتى يومنا هذا!

(٣) وقد كان من بين العقبات التي حالت دون العربية وأدائها في جنوب آسيا هو ذلك الأسلوب الأدبي المتكلف المتصنع من السجع والقافية والكلمات الوحشية الغريبة ذلك الأسلوب الذي اختاره بديع الزمان الهمذاني وأبو

القاسم الحريري وأضرابهما فقد كان أسلوبا ثقيلا عقيما وعقبة خطيرة هائلة في سبيل العربية بل كان هذا الأسلوب المتكلف العقيم جنائية كبرى على العربية وعلى مستقبلها الزاهر كلغة وحيدة للعالم الإسلامي كله فقد عرقل هذا الأسلوب سيرها وأثقلها على الألسنة فلولا هذه الجنائية الكبرى على العربية لما كانت الفارسية السهلة السلسلة الحلوة التي حلت محل العربية، ولولا الفارسية حلت محل العربية في إيران وما إليها من البلاد لكانت العربية هي اللغة الوحيدة للمركب الإسلامي الحضاري أينما كان وحيثما حل.

(٤) وأما القائمون بخدمة اللغة العربية وآدابها في شبه القارة فقد ضلوا هم الآخرون طريقهم وغاب كل شئ عن نواظرهم غير الأسلوب المتكلف العقيم من السجع والقافية فراخوا يتلاعبون بالألفاظ دون المعاني واكتفوا بما وصل إليهم من لعبة الألفاظ وشعوذتها فعمكفوا عليها يتلاعبون بها وحين لم يعد من مقدرتهم أن يتلاعبوا بها وقفوا حائرين مندهشين أمام ذلك الأسلوب المتكلف العقيم ولا يزالون كذلك حتى اليوم!

(٥) ثم جاءت أخطر مرحلة من تاريخ العربية وآدابها في شبه القارة وذلك حين لم يقدروا على التعبير أو قل على التكلف والتصنع فقرروا أن يتعلموا العربية ويعلموها كلفة ميتة لا تفهم ولا تكتب كالسينسكريتية والإغريقية واللاتينية من اللغات القديمة العتيقة الميتة واكتفى المدرسون بأن يقرأوا النص العربي للطلاب ثم يترجموها لهم إلى لغة محلية فقط، وهذه هي الحال التي نحن عليها في باكستان اليوم!^(٧٩)

وقد لا يختلف الحال في الهند عنه في باكستان كثيراً، مع كون أدباء

العربية في باكستان في وضع أفضل، يشجع على تعلم العربية ودراستها وتدريسها والكتابة بها.

هذه هي خصائص الأدب العربي في شبه القارة أوجزناها هنا باختصار واجمال وتركنا التفاصيل لنتناولها في مقالات مفصلة عن فنون هذا الأدب. وخلال البحث في الأدب العربي في شبه القارة بدت لنا بعض الظواهر الأدبية التي تميزه رأينا أن نذكر واحدة منها هاهنا وأرجأنا البقية إلى مقالات أخرى - هذه الظاهرة تتمثل في محاولات قد يسميها البعض بما يشاؤون لكننا اعتبرناها محاولات للتجديد سواء من ناحية الشكل أم المضمون.

محاولات التجديد:

هذا العنوان أطلقناه - متساهلين - على جميع محاولات الأدباء والشعراء الذين حاولوا ادخال معان أو قوالب شعرية لا يعرفها العرب العاربة، حتى وان لم يقصد أصحابها التجديد. فهي محاولات جديرة بالدراسة عند نقاد الأدب العربي في شبه القارة، لا يستطيعون أن يمرروا عليها مر الكرام، لكن هذه المحاولات لم تقع في فنون النثر كلها بل في فن البلاغة وحده، مع ظهورها في الشعر بكثرة.

وفارس هذا الميدان غلام على آزاد البلكرامى الذي عرف بكثرة انتاجه مما اقتضى تأمل جهوده بعناية بغية استكناه المقصود منها. وان كنا لا نعدم وجود محاولات أخرى تشبهها من قريب أو بعيد.

يقول آزاد في كتابه الشهير سبحة المرجان في آثار هندوستان أثناء حديثه عن فنون البديع:

"وأما الأهاند فهم مبدعو فنونهم، وما هصروا الا غصونهم... ثم إن قدماءهم الذين كانوا قبل زمان الإسلام استخرجوا من الكلام بدائع وافية، واستنبطوا من رشحات الأقلام صنائع شافية منها مشتركة بين العرب وبينهم كالتورية وحسن التعليل وتجاهل العارف والمراجعة والاستعارة والتشبيه والجناس والسجع وغيرها ومنها مختصة بالعرب كاستخدام المضر وحسن التخلص والتأريخ على قاعدة الجُمْل وغيرها، ومنها مختصة بالهند، وأنا قصدت أن أنقل القسم الأخير عن الهندية الى العربية، فرأيت بعضها لا يقبل النقل لخصوصيته بلسان الهند، وبعضها يقبل النقل فنقلت عنها نبذة وجدتها فائقة وألحقت بفن الأدب جملة رائعة، وأرجو من العرب العرباء أن يستحسنوا مخترعات الأهاند كما استحسنوا الأسياف الهندية بين الفراند. ولما شمريت ذيل الجهد في هذه الميادين، وعمدت على استخراج الأمثلة عن المجاميع والدواوين سخت لي نبذة من الأنواع، وظفرت بأقراط ثمينة للأسماع، فاخترت من الأنواع الهندية ثلاثا وعشرين وسميتها في العربية بأسماء مناسبة بمسمياتها..." (٤٠)

فأنت ترى في هذا الكلام أمرين أولهما اثباته السبق في فنون البديع لفصحاء الهند، وثانيهما أنه نظر في أنواع البديع عند قدماء الهند ثم استخرج من شعر العرب ما ينطبق عليها وسماها بأسماء من عنده تناسب حالها وفحواها، وادعى بعد ذلك أنه أول من اخترع كذا وكذا من هذه الفنون.

ونسوق هنا مثالا لما فعل، يقول: "التنزيه، هذا النوع استخرجه بعض الأهاند في مقابلة التشبيه، وهو أن يبرئ المتكلم شيئا عن أن يماثله شيء آخر كقوله تعالى ليس كمثله شيء وقوله تعالى ارم ذات العماد التي لم يخلق مثلها

في البلاد ، وقول حسان في مدح النبي صلى الله عليه وسلم :

وأحسن منك لم تر قط عيني وأحسن منك لم تلد النساء (كذا)

خلقت مبرأ من كل عيب كأنك قد خلقت كما تشاء

..... وقول ابن الفارض :

فلم أر مثلي عاشقا ذا صباية ولا مثلاً معشوقة ذات بهجة

وقولي من قصيدة نبوية :

فرد جليل لا يشاهد مثله من ثم رؤيته شفاء الأحول

ويسوق سبعة أمثلة أخرى من نظمه . (٤١)

وفات آزاد أن ألوان البديع قدر مشترك بين آداب العالم كلها، يزيد البعض فيها ألوانا هنا، وينقص آخرون بعضها هناك، ولا يعنى وجود نوع أو أنواع منها عند قوم وفي أدب لغة ما أن لهؤلاء القوم سبقاً على الآخرين، فالهنود تصالحوا على أنواع تناسب أدبهم وخصائصه، والعرب وضعوا لأنفسهم منها بما يناسب مزاجهم وأدبهم وكذلك فعل اليونان والفرنسيون وغيرهم من الأمم، لأن هذا الضرب من الفنون ينمو نموا طبيعيا مع اللغة ووفق معايير بيئتها، ومحاولة فرض البديع العربي على البديع الانجليزي مثلاً عبث وهراء لا يستفاد منه بشئ، ولو أن آزاد قارن بين هذه المحسنات في اللغات التي يعرفها أي العربية والهندية والفارسية، وقدم لنا بحثاً شيقاً حول هذا لكان

أمام عصره وعصرنا في هذا المجال، ولاستفاد من جهده طلاب الأدب في اللغات الثلاث.

ثم ان آزاد قال في عبارته السابقة: "وأرجو من العرب العرباء أن يستحسنوا مخترعات الأهند كما استحسنوا الأسلحة الهندية بين الفراند" فهذا قياس نظنه في غير محله فالفنون الأدبية لا تقاس بحال على المصنوعات المادية التي تباع في الأسواق وتشتري، لأنها لا تشبهها في شئ، نعم هناك بضائع مستوردة عبر التاريخ في كل البلاد لكنها أيضا تخضع للذوق في كل بلد على حدة، وما سمعنا بفنون بلاغية ومحسنات بدعية استوردها قوم وأدخلوها في أدبهم ادخالاً، لأن هذه الأشياء مربوطة بحس كل قوم وذوقه ومزاج لغته وطبيعة نشأتها وأدبها وخيالها الذي نما وتشربته أنسجتها عبر قرون. وشكلتها عناصر النشأة الطبيعية مثلها في ذلك مثل أى لغة، وليس من الممكن ولا من المعقول ادخال شئ فيها بطلب من أحد.

ومحاولات التجديد التي أثنى هو عليها وأثنى عليها بعض الباحثين^(٤٢) واعتبروا صاحبنا قد امتاز بها على العرب والعجم في مجال الأخيلة، مبنية في أصلها على سوء فهم. خذ لذلك مثلاً ادخاله بعض ما يتعلق ببيئة الهند في الشعر العربي كقوله :

تعالوا واسمعوا ملح الأغاني عن الوراق ثم الكوئلاء^(٤٣)
فطائر الكوئلاء طائر مغرد في شبه القارة يعرفه أهلها، ويطربون لصوته،

٤٢ - انظر حركة التأليف ، ص ١٣٧ .

٤٣ - نفس المصدر ص ١٣٧ .

ولن يطرب له العرب أو يدركوا ما في شعر آزاد من صورة ومعنى يتعلق بهذا الطائر، ولو نظم آزاد فيه وفي حسنه ألف بيت ذلك أنه طائر غريب الاسم والصفات عن بيئة العرب.

وكقوله مثلاً عن الغراب :

سمعت غراب الهند يضحى مبشراً بعود حبيب ياله من مبشر
ألا يا غراب النجد أنت شقيقه فمالك تؤذى هائماً بالتطير^(٤٤)

فأهل شبه القارة يتفاعلون بالغراب والعرب تتشاعم به، ولن يتركوا ذلك بمدح آزاد للغراب لأنه مرتبط بتاريخ اجتماعي عريق لا يمكن تغييره، وسيبقى الغراب فألاً لوصول الأحبة في شبه القارة كما سيبقى رمز نحس وفراق عند العرب لا يغير ذلك قول الشعراء . وليت آزاد عامل الغراب في الشعر العربي وفق أحاسيس العرب كما فعل غيره من شعراء العربية في شبه القارة حين قال:^(٤٥)

قصدي لقاء سليمي قصد مفتقد عندي النوى وغراب البين قد نعقا

نظم آزاد بالعربية في قالب الغزل وهو قالب معروف في الشعرين الفارسي والأردى ينظم الشاعر فيه أبياتاً لا تزيد عن اثني عشر، ومن سماته أن كل بيت فيه وحدة قائمة برأسها وأنه ينتهي بالتخلص وهو الاسم الذي يختاره الشاعر لنفسه، وكأنه يمهر به قصيدته في النهاية. لكن شاعرنا لم يحافظ على مواصفات الغزل كما هي في الأردية والفارسية بل خرج عن الحد العددي في كل ما نظم من هذا النوع، يقول مثلاً :

٤٤ - نفس المصدر ص ١٣٨ .

٤٥ - هو محمد بن هادي الحسيني الكالوي، الثقافة الإسلامية ص ٥٢

أُتِعلم في مودتها رياحى فقدت عقيق قلبى بالبطاح
 فيا للفوز ان وجدته سلمى وتجعله نظيما في الوشاح
 لقد سفكت دمي بأبى قببىس وما اثنى سوى عدم الجناح
 ولم أك راجيا من سوحها ان توشح عاتقى بدم الذباح
 فيا لمذاق من حليت دماء وأدركت المرارة في السمماح
 نوات الحسن يقتلن البرايا ولا يخشين تلويث الصفاح
 لواظهن سافكة وليست يلوثها دم يا للسلاح
 وألحاظ الخرائد حين تجفو مريضات بهن قوى الصراح
 رأيت مطوقا يبكى حزينا على فقد الشقائق والأقاحى
 ويستمر على هذا النهج في قصيدة تصل الى سبعة وعشرين بيتا الى أن
 يقول:

تعالى الله أحيانى نسيم أتانى من سليمانى في الروحاح
 أروم الاستقامة منه عندى وأين الاستقامة في الرياح
 أطل النصح توام جهول وقانا الله عن هذا النباح
 أما يدري صراط مستقيم رضا الانسان بالقدر المتاح
 شربنا من مودتها رحيقا وفرزنا منه بالكأس الصراح

ترقرق في طلبوب السكر دمعى وقلبي ضاحك فليبك صاحى
سعى آزادنا سعيا جميلا فألفى العشق من سبل النجاح^(٤٦)

ولا يخفى عليك ما في "وقانا الله عن هذا النباح" من مخالفة فان وقى
لا يحتاج الى حرف عن وان كان لا بد منه فهو من وليس عن" وما أردنا هنا
الا التمثيل لنهجه في النظم العربي على قوالب الغزل الفارسي والأردى. وقد
شاركه في هذا النهج غيره دون مراعاة لخصائص الغزل مثل طلا محمد
(ت ١٣١٠هـ) وهو شاعر آخر طويل النفس في النظم ، ففي تشطير القصيدة
العينية لابن الفارض وهو ما جاء في مائة وستة وعشرين بيتا أنهاها
بالتخلص كما ينهى الغزل فقال :

وأيد بنوركى يقوول له طلا أبدر بدا من جانب الغور لامع^(٤٧)

وكذلك فعل في قصيدة أخرى في مدح أهل الحديث طولها سبعة وثلاثون
بيتا ، وأخرى طولها ستة وأربعون بيتا.^(٤٨)

كذلك أدخل آزاد الترديف وهو من خصائص الشعيرين الفارسي والأردى
وهو أن يلتزم الشاعر كلمة واحدة يكررها في المطلع وفي نهاية كل بيت بعد
القافية. قال صديق حسن في كتابه غصن البان يقارن بين خصائص الشعر
العربي والفارسي والهندي:

٤٦ - مختار ديوان آزاد ص ٢٩ - ٣٠ ، الهند ١٣٢٨هـ.

٤٧ - طلا محمد خان كى احوال وأثار، بحث مقدم من الطالب محمد أشرف للحصول على
درجة الدكتوراه في اللغة العربية من جامعة البنجاب، باكستان عام ١٩٨٨م، ص ١٣٠
الى ١٣٥ .

٤٨ - طلا محمد خان كى احوال وأثار ص ١٦٥ و ص ١٦٩ .

".... والأوزان الفارسية أكثرها في غاية المطبوعية بخلاف العربية والهندية، والنظماء من الفرس أو ممن يتقلدهم كأهل الهند ينظمون الشعر من غير علم بالعروض الفارسية ومع هذا لا يخرجون عن الوزن لأن الأوزان الفارسية يعرفها من له أدنى سليقة لما فيها من غاية المطبوعية. وأما العجمي الراغب في الشعر العربي فعليه أن يتعلم العروض العربية ولا تزل قدمه عن جادة الوزن ، نعم قد خرج عن الوزن جماعة من فحول الشعراء من العرب فكيف الأعاجم ؟ ومنهم المتنبي في قوله :

تفكره علم ومنطقه حكم وباطنه دين وظاهره ظرف

وحال الشعر الهندي أيضا كذلك لا يعرف أكثر أوزانه إلا بعد تعلم العروض الهندية. ولشعراء الفرس الرديف وهو عبارة عن كلمة مستقلة فصاعدا تتكرر بعد الروى ويسمى الشعر المشتمل عليه مردفا من الترديف وهو يزيد الشعر جمالا ويلبس بنات الأفكار خلخالاً، وبه يتنوع النظم الفارسي على أنواع لا تحصى وأقسام لا تستقصى، ولا رديف في شعر العرب وإن تكلف أحد بالترديف لا تظهر له جلوة مثلما تظهر في شعر الفرس ولا موجب له إلا خصوصية اللسان. وفي ديوان الشيخ عبد العزيز اللبباني قصيدة مردفة وكذلك في ديوان الزمخشري ولأزاد البكرامي ديوان مردف^(٤٩)

يقول آزاد :

عين الصواب جنابة الحسناء قتل المحب عناية الحسناء
ترجيم قبري بعد دفن الجسم من رجم الغوير رعاية الحسناء

نبكى على قتل النساء ترحما شتم القتييل رثاية الحسناء
تعد وعلى العشاق غزلان الحمى هذا الجفاء بناية الحسناء
جور الظوالم في الأباطح شائع سند لهن بداية الحسناء^(٥٠)
الى آخر القصيدة. وأنت ترى أن همه في هذا توفيق الكلمات ولو كانت بلا
معنى، وقد نظم قبله مسعود سعد سلمان (ت بعد ٥١٥هـ) شعرا يشبه ذلك
ويسمى بذى القافيتين فقال :

يا ليلة أظلمت علينا ليلاء قارية الدجنة
قد ركضت في الدجى علينا دهماء خدارية الأعنة
فببت أقتاسها فكانت حبلى نهارية الأجنة^(٥١)

فقارية وخدارية ونهارية قافية أولى وما بعد كل منها قافية ثانية. وأما
المردف فالقافية الثانية فيه يشترط لها أن تكون كلمة واحدة تتكرر في آخر كل
بيت ولا تتغير .

هذه القوالب لا نجدها عند فيض الحسن السهارةنبورى لأنه اهتم
بالموضوعات ولم يهتم بالشكل والقالب وحاول قدر المستطاع نظم مشاعره
وأحاسيسه . يقول مثلاً:

عبثن بصب كان بالببيض عابث ولم يك ممن ينكث العهد ناكثا
حلفت ولما لم أجد عنك سلوة حنثت ولولا أنت ما كنت حانثا

٥٠ - ديوان آزاد ص ٧٨ .

٥١ - سبحة المرجان : ٦٩/١ .

لعمرك لا أنسى غداة لقيتها وما كان فيها ما سوى الله ثالثا
وما ليلة طلق ألد من التي عهدت بها فيها فبت محادثا
ولولا العدى لا بارك الله في العدى لكنك لديها سائر اليوم لابثا^(٥٢)
ويقول حين سرق متاعه :

كمثلئى اذا السراق راحوا بمنفسى وغودرت كالبير التي هى نازح
جلست كائى لم تصبنى مصيبة وما كاد يبدو ما تكن الجوانح
أتاني رجال من محب ومبغض يعزوني والصدق كالكذب واضح
فميزت بين الغش والنصح منهما وهل يستوى في الطعم عذب ومالح^(٥٣)
فكان السهارنبورى أول من خرج بالشعر عن تقليدية الموضوعات، وسنرى ذلك عند الحديث عن ديوانه.

وكما نظم آزاد بالعربية في قالب الغزل نظم كذلك في قوالب أخرى كالترجيع وهو تسعة أبيات يتكرر بينها فاصل بعينه ، وقد نظم فيه الفرس كثيرا، ويشبه المسمط الذي شاع في عصور الضعف في الشعر العربي، يقول آزاد :

مولاي حزننت في هواكا من يكشف غمتى سواكا
ألفيتك في الضياء شمساً يذرى العبران من يراكا

٥٢ - ديوان الفيض ص ٥٠ و ٦٨ .

٥٣ - نفس المصدر ص ١٤ .

والله لقد أهنت ضيفا من ينزل بعده حماكا
يزداد ضنناى كل أن حتام أذوب في نواكا
هل تقبل في كراى ليلا أو تطلبنى الى كراكا
شكرا لك ان رفعت قدري مالى شركاء في جفاكا
لولم تك ساكنا بقلبي نا لجعلته فداكا
أهلا بك سيدى وسهلا أهديت لمقلتى سناكا
أقبلت على مستعدا أن تفرق في دمي ظباكا

ان نقت الموت لا أبال

حياك الله ذو الجلال^(٥٤)

ويكرر البيت الأخير بين المقاطع. وقد نقل في هذا النظم الطويل بعض
الأخيلة عن شعراء الأردية كقوله :

لا تعرف في الهوى مكاني والعاشق شاهر الحسان
وقوله في بيت آخر :

أنس لك بالكتاب لكن لا تقرأ غير لن تراني ...
في شتمك للمحب عز يشربه بقيمة الجمان^(٥٥)

٥٤ - ديوان آزاد ص ٩٩ .

٥٥ - ديوان آزاد ص ١٠٠ .

فهذه أخيلة ترددت في الشعر الأردى كثيرا .

كذلك نظم آزاد في شكل آخر فارسي أيضا هو المستزاد فقال :

وقفنا على طرة المنحنى بايمائها وما كان علم لنا ههنا بايذاؤها
ورت في فؤادى نار الجوى بايرائها فمن لى من أهل وادى القرى باطفائها
أيا من يسائل عن حالتي فقدت فؤادي أمام الربى بجرعائها
فيا ليتني أحتظى بالردى إلام أقاسى صنوف الأذى بشحنائها
وهكذا الى أن يقول :

همت أدمعى يوم لقيانها فعطفنا على هيمان الندى بصقعاتها
أذاب الأطيباء ابراؤنا فيا ليت سلمى تزيل الضنا بابرائها
آزاد يرغب في دولة اذا لم يكن فائزا بالغنا باغنائها^(٥٦)

ولفظ دولة هنا مستخدم في معناه في الأردية أى ثروة كما أن الغنا الذي أرادَه آزاد يكتب بالياء لا بالألف.

ولقد كان من الممكن أن يشتهر آزاد عند العرب لو أنه نظم في هذه القوالب معانى صافية سهلة يتغنى بها الناس، ويلحنها الملحنون كما لحنوا الموشحات، لكنه اشتغل بحشو القوالب بكلمات توافق الوزن بصرف النظر عن معانيها، لأنه اهتم بالقالب والشكل ولم يهتم بالمعنى والمضمون، ولذلك لم يوفق ولم يشتهر وأخفقت محاولاته ومحاولات من حاول مثله. والشعراء بعد آزاد لم

يستفيدوا من التجارب رغم مرور سنوات طويلة فصلت بينهم وبين تجاربه، بل
كرروا نفس المحاولة، فهذا محمد أفضل فقير (ت ١٩٩٣م) ينظم في قوالب
الرباعي الفارسي بأوزانه الأربعة والعشرين فيقول مثلاً:

محبوب المولى ساد الأسلافا كالخير حوى جزاؤه أضعافا
بالنعت لمن والاه استكرام قد كان الرحمن له وصافا

شمت نفحات لطفه الأقطار قرت بضياء حسنه الأبصار
قد شرفنا به اله الخلق من في بدء الخلاق المختار

أخلاق حبيب الكونين الاعجاز تبشير التيسير وللدهر طراز
تعظيم المصطفى القلوب ادخرت ذاك التقوى له العلى والاعزاز^(٥٧)

فأنت ترى أن هذه المحاولة تكاد تقترب من النثر لكنه نثر غير مفهوم لأن
صاحبها اهتم بملء القالب الفارسي بالفاظ عربية ونسى أن أوزان الشعر ما
وضعت في أى لغة اعتباطاً، وانما وضعت على نحو يناسب أداها للمعاني
وحملها لألفاظ تلك اللغة، فما يصلح للفارسية لا يصلح بالضرورة للعربية اذ
لكل لغة خصائصها.

وهناك صنعة أخرى حاول انشاءها أبو الفيض بن المبارك وهى صنعة
الاهمال وقد برع فيها في النثر فألف تفسيراً كاملاً للقرآن بها ليس فيه حرف

منقوط، كما أنه نظم بها أيضا فقال مثلا يصف تفسيره هذا:

سواطع الهام مكارم سؤدد مراحم ارسال هو الله أرحم
عواطل أعراس حلاها دلالتها ملاح لها سدلا سدوس مسهم
وها كل لوح سطره مكرما ركام ودأماء السواطع أكرم
ومدلولها المعهود مما أراده لكسر لهام الوهم طرا عرمرم
ولو طار ملاك الكلام مطاره لرد وما كل الأعاور أعصم^(٥٨)

وقد عثرت على قصيدة كتبها الشاعر المعاصر الدكتور خورشيد رضوى
أستاذ اللغة العربية بالكلية الحكومية بمدينة لاهور وعنوانها "الجمال المنسى"
يقول فيها:

نجمة في الأفق كالزئبق ترنو
عبر أعصر
عين من في هذه النجمة تحلو
لست أذكر
نجمة أخرى كمثل القرط في أذن السماء
تتألق
جيد من من تحت هذا القرط في رحب الفضاء
يتفرق
وجبين البدر كالدينار من خلف التلال
يتطلع

وجه من في الحلم في ستر الخيال

يتقنع

انما الليل حبيب حل فينا

فاتن حلو الشمائل

في بهاء وجمال قد نسينا

فهو منبث المخايل^(٥٩)

وأنت ترى أن الشاعر، وهو شاعر عمودي، يظل قلمه في هذه المحاولة الشعر التقليدي وذلك لانقطاع الصلة بينه وبين الشعر العربي الحديث ودواوينه، ومع هذا فهو شاعر مطبوع من الممكن أن تلد لنا قريحته بنات شعر حديث لا تقل عن بنات العرب الخالص إذا ما توفر له رباط يربطه بالثقافة العربية المعاصرة. أفنلقى باللوم هنا على العرب الذين لم يهتموا بما كُتب في لغتهم خارج المنطقة العربية أم على قلة اهتمام الشعراء المعاصرين في شبه القارة بالثقافة العربية الحديثة ؟

هذه المحاولات، خاصة القديمة منها، لم تؤت ثمارها لأسباب نوجزها فيما يلي:

الأول : انقطاع الصلة بين أدباء العربية في شبه القارة وبين أخوانهم العرب الخالص مما أدى الى فقدان الأنماط العربية الجديدة التي يستفيد منها هؤلاء الأدباء في مراحل المحاكاة والتقليد التي يمر بها الكتاب والشعراء الى أن ترسخ في نفوسهم ملكة التعبير بحرية بعد الاطلاع على الصور الحديثة وتعبيرات العصر الحاضر، وأساليبه وقوالب الفنون الأدبية المختلفة . ومن

أسف أن هذا الانقطاع ما زال يحول بين الطرفين رغم تقدم وسائل الاتصال والطباعة.

الثاني : أن محاولات التجديد عند آزاد مثلاً انصبت علي القالب والشكل دون المعنى - وكذلك عند غيره - مما عاق رواج هذه القوالب في الشعر العربي، لأن المعنى ان لم يجذب العرب فلا وزن للقالب. وانما أخفق آزاد لأنه فوق هذا حاول أن يهتد العربية لا أن يعرب عربيته، ولم يستفد بما أتيح له من فطرة شاعرة لا شك فيها، وثقافة شعرية أيضاً لا ريب فيها، في الاتيان بشعر يفصح عمقه عن هذه الخلفية التي ربما لم تتوفر لشاعر عربي أصيل.

وأظن ظناً أن سبب اخفاق آزاد الرئيسي سبب نفسي ، ذلك أنه اغتر بنفسه وظن أنه بنظمه الشعر العربي في قوالب فارسية وهندية قد سبق كل أحد، وأنه بتلفيق أبيات عربية لتبرير ألوان البديع الهندية أو التمثيل لها قد ولد ما لم يلبده أحد، والفاحص لشعره ونثره يستطيع أن يضع يده على عقدته فهو مغال في حب بلده حتى قال:

ان تبتغوا ماء الحياة فانه في الهند لا في موضع الظلمات^(٦٠)

ولا نعيب عليه هذا فحبه لبلده أمر فطري، وهو حر في قلبه يحب به ما شاء ومن شاء ، وقد نخطئ أيضاً في حقه اذا نقدنا منهجه في كتابه سبحة المرجان الذي خصص جزأه الأول للحديث عن الهند في الكتاب والسنة وجمعه روايات المحدثين في هذا الشأن مما لا يعلم حاله الا الله والراسخون في العلم، حتى اعتبرها مهبط الرسالات ومنزل الأنبياء والملائكة الى حد يجعلك تخشى - وأنت تقرأ كلامه - أن يدعى أن الرسالة المحمدية كانت ستنزل في

الهند. هذا كله نغمض عنه أعيننا لكن أن يكتب أجزاء الكتاب الأخرى ليمدح نفسه ويقول خلف كل بيت أو فن هذا لم يقله في العربية غيري، وأنا أول من قاله محاولاً بالتصريح والتلميح اثبات فضل الهنود على العرب في لغتهم العربية وهم أصحابها فهذا ما يشير الى أسباب نفسية لا بد من أنها تحكمت في أفعاله وانفعالاته.^(٦١)

ومع هذا كله فقد جد آزاد بلا ريب في موضوعات الأدب العربي في شبه القارة حين أدخل الوصف، فوصف أعضاء المعشوقة في قصيدة طويلة بعنوان مرآة الجمال ، وقد استعار هذا الفن من الأدب الفارسي، هاك بعضها:

أضفيرتان على بياض خدودها أو في كتاب الحسن سلسلتان
أو ليلتا العيدين أقبلتا معا أو من قصائد هم معلقتان
لله جبهته المضيئة في الدجى وهب الاله له علو مكان
هى نصف بدر كامل لكنهما تربى على القمرين في اللعان
أبصر حواجبها وأدرك كنهها غصنان منحنيان وسط البان
أو كافران يشاوران ليوقعا أمالنا في موقع الحرمان
طرفا الحبيبة ماكران تمارضا وتغافلا عن رؤية الجيران
أو نرجسان علي غصين واحد وهما بماء مسكر نضران^(٦٢)

٦١ - انظر نماذج هذه الأقوال في سبحة المرجان المجلد الثاني كله، وغصن البان ص ٦ .

٦٢ - نشوة السكران : ص ٧٨ .

ويواصل الوصف المادى لجسم المعشوقة من أعلى الى أسفل مخصصا بيتين لكل عضو، وما يلفت النظر في هذه القصيدة أنه بدأ وصف أول عضو وهو الجبهة بصيغة المذكر، لكن القصيدة كلها تصف أعضاء معشوقة، وفي صيغة المؤنث. وينهيها كعادته في مدح نفسه بقول:

ما ان سمعنا مثلها عن شاعر آزاد للطرز المنشط بانى

هكذا رأينا كيف حاول آزاد تهنيد العربية، وطالب أدباء العرب باستحسان محاولته، ورأينا كيف انصبت هذه المحاولة، كما ارتكزت محاولات غيره، على الشكل لا المعنى، ولذلك بقى الأدب العربي في شبه القارة مجهولا لدى العرب لم يستحوذ على أذواقهم، ولم يثر انتباههم، فظل حبيس قوالبه دون أن يؤثر في أدب اللغة العربية بشئ، وكان في مقدور أصحابه أن يصلوا به الى رتبة لا يعلوها أى أدب عربي آخر خارج ديار العرب. يقول الدكتور شوقي ضيف :

"ومهما يكن فان تأثير الثقافتين الفارسية والهندية في الشعر العربي غير واضح المعالم، وحقا انهما لعبتا دورا واسعا في الشعر الشيعى والصوفي، ولكن ليس هذا من التأثير العام في الشعر العربي انما هو جانب خاص يعنى به من يبحثون في الشعر الشيعى والصوفي وأصولهما، أما الذين يبحثون في الشعر العربي العام فسيجدون تأثير هاتين الثقافتين محدودا على عكس الثقافة اليونانية التي يظهر تأثيرها في وضوح"^(٦٣)

ونحن لم نتعسف نقد آزاد، ولم نظلمه بنقدنا لشعره فهكذا نراه وهكذا رآه أيضا أهل العلم من أبناء بلده. يقول المؤرخ والناقد والأديب الاستاذ شبلى النعماني رحمه الله:

"ان قصائد آزاد العربية تتصف بالأفكار والأساليب الفارسية والهندية الى حد أنه لمن المشكل أن تدعى قصائد عربية. وفي الحقيقة كان آزاد يفتخر بأنه قد نجح في ادخال التشبيهات والأفكار الهندية في الأدب العربي، وأيا كان الأمر فان علماء الأدب يعلمون أن هذا الجانب من شاعريته يبدو وصمة عيب لا وسام شرف وامتيان"^(٦٤)

كذلك انتقد شعر آزاد الفارسي انتقادا شديدا وارسته السيكالوتي في تذكرة الشعراء وياقر بن مرتضى في كتابه "چهار صد ايراد بر كلام آزاد" حيث سجل فيه أربعمئة غلطة استخرجها من شعره وهذا الكتاب مخطوط واسمه الآخر عثرات آزاديته.^(٦٥)

ونقده المفتي محمد عباس التستري في منظومته أجناس الجناس حيث قال:

وقد زقنا كلام البلجرامي فمسا ثمراته غير الجرامي
تري أنفاسه مسكا ذكية وفيها بعد نتن الهندكية
الى آخر ما قال.^(٦٦)

أما اعتبار تهنيد آزاد للعربية اضافة جديدة في الأدب العربي والزعم بأن

٦٤ - نقلا عن مقال تطور الشعر العربي في الهند لمحمد أسلم اصلاحي، الثقافة الهندية مجلد

٢٨ عدد ٢ ص ١٦، وانظر مقالات شبلي النعماني : ١٢٩/٥، الهند ١٩٣٦م.

٦٥ - فقهای هند، محمد اسحق بهتی : ج ٥ القسم الثاني ص ٢٨٨ وسا بعدها باكستان ١٩٧٩م.

٦٦ - أجناس الجناس: ص ٤١ - ٤٣ ، الهند ١٢٠٦ هـ .

أدباء العرب أثنوا عليه كما قال بعض الباحثين^(٦٧) فقول يحتاج الى دليل، ولا يعنى لقاء آزاد أحد المشايخ في بلد ما وتشجيع الشيخ له كأعجمي يتكلم العربية أن أدباء العرب مدحوا شعر آزاد فالحقيقة أنهم لا يعرفون آزاد وشعره ولو عرفوه لاشتدوا في نقده.

هكذا رأينا خصائص الأدب العربي في شبه القارة الهندية وهي خصائص انتهينا إليها بعد فحص أعمال سبعين من الأدباء والشعراء كما تحدثنا عما سميناه بمحاولات التجديد وارجأنا الحديث عن الظواهر الأدبية الأخرى وخصائص كل من الشعر والنثر واسهام أبناء شبه القارة في فنون كل منهما الى مقالات مستقلة برأسها.

٦٧ - حركة التأليف ص ٢٧ ومقال محمد اسلم اصلاحي السابق ذكره في الحاشية رقم ٢ .

الأدب العربي في شبه القارة الهندية

(٢) الأدب السياسي

د. أحمد إدريس

الأدب السياسي في أدبنا العربي في شبه القارة - بخصائصه العامة التي ذكرناها في المقال السابق - ظاهرة تسترعى الانتباه، وتجعلنا نبحث لها عن أسباب وعلل، تفسر وجودها، وتكشف غموضها، فما كان لأدب نما ونشأ في غير مجتمعه أن يلمس موضوعات سياسية وينفعل بها، فما هي الأسباب وما هي قيمة هذا الأدب السياسي؟

في تقديرنا أن هذا النوع من الأدب لم ينشأ إلا بعد تحرر الأدب العربي في شبه القارة من قبضة الأبلطة والسلطين، فتحررت الأقلام والقرائح، واتجهت إلى الكتابة في موضوعات كانت في القديم شجرة محرمة ممنوعة. ودليلنا على هذا أن أغلب ما في أيدينا من هذا الأدب أنتجه أدباء عاشوا في القرنين التاسع عشر والعشرين بعد زوال سلطان المسلمين في شبه القارة، وهذا ملمح أساسي من ملامح الأدب السياسي العربي في شبه القارة.

والملمح الثاني أن هذا الأدب لم يهتم بقضايا السياسة الداخلية في شبه القارة إلا في القليل بينما اهتم ببعض قضايا الأوضاع الدولية بشكل أوضح، فسقوط دولة المسلمين في الهند، والاحتلال البريطاني لها، وثورة المسلمين فيها ضد الاحتلال سنة ١٨٥٧م، وتقسيم الهند وقيام باكستان وحروب

الدولتين وغير ذلك من أحداث هامة وقعت في التاريخ الحديث لشبه القارة لم يلمسها الأدباء من قريب أو بعيد. فزعيم سياسي معروف مثل بهادر يار جنك (ت ١٩٤١م / ١٣٦١ هـ) وهو من قادة حركة باكستان عاش حياة سياسية ثرية بالأحداث ورافق مؤسس باكستان محمد علي جناح وله مؤلفات سياسية باللغات الأخرى لكنه حين كتب بالعربية، كتب لنا شرح معلقة امرئ القيس، وشاعر عظيم مثل أطفاف حسين حالي يكتب لنا ملحمة الأمة الإسلامية باللغة الأردنية والمعروفة باسم "مسدس حالي" لكنه لم يكتب لنا شيئاً من هذا في العربية، وليته كتب مسدسه بها.

وقضايا الأمة الإسلامية، أو المسائل الدولية الساخنة كسقوط الخلافة العثمانية وحركة تأييدها التي أسسها العلماء والساسة في شبه القارة، والحرب العالمية الأولى والثانية ومشكلة فلسطين وحركة الوحدة الإسلامية التي دعا إليها جمال الدين الأفغاني، وما وقع في إيران وأفغانستان المجاورتين.. كل هذا لم تتفعل به قرائح أدبائنا في كثير.

والملمح الثالث أن الموضوعات التي تطرق إليها بعض الأدباء مما يتعلق بقضايا السياسة الداخلية أو الخارجية لم يتعامل معها أدباؤنا تعاملًا مباشرًا بل جاء ذكرهم لها في ثنايا أغراض أخرى. فالحرب بين العثمانيين وروسيا مثلاً نجد ذكرها في قصائد المدح التي كتبها السهارةنبورى وذوالفقار على (ت ١٣٢٢ هـ) للسلطان عبد الحميد، والحديث عن مؤتمر القمة الإسلامية الذي عقد في لاهور سنة ١٩٧٤ يذكره الدكتور صوفى ضياء الحق (ت ١٩٨٩م) ضمن مدح للملك فيصل بن عبد العزيز، كذلك تأسيس باكستان نجده في قصيدة له في رثاء محمد علي جناح، والاحتلال الروسى لأفغانستان يذكره خورشيد رضوى في قصيدة له في مدح المجاهدين.

والملمح الرابع أن هذا الأدب قليل جداً إذا ما قارناه بأحداث الخضم الهائل الذي اجتاحت شبه القارة والعالم الإسلامي في القرنين التاسع عشر والعشرين، فقد كان ينبغي أن تهز هذه الأحداث العظيمة وجدان أدبائنا فيصوغوها شعراً ونثراً. ومع هذا فالقليل الذي وصلنا متنوع في موضوعاته إلى حد يجعلنا نعتقد أن الأدب العربي في شبه القارة لو أتيحت له الحرية في القرون السالفة لانتج الشيء الكثير مما له صلة بالمجتمع وإنما أفسد السلاطين عليه وعلى أصحابه الجو، فانعزل وتقلص.

والملمح الخامس أن تناول الأدباء للموضوعات التي شغلتهم تناول بسيط ساذج خلا من الفكر وبعد عن عمق النظرة وجودة التحليل، فهذه الموضوعات تطرق لها كثير من أدباء العربية في ديار العرب وفي إيران مثلاً فكانت كتاباتهم أعمق، وتناولهم أجود، ولعل السبب في هذا أن الأدب العربي في شبه القارة حين التفت إلى هذه الموضوعات كان قد تحرر لتوه من سطوة السلاطين، فكان طفلاً في تفكره وتدبره لأنه خرج من بطون القصور المظلمة إلى شارع الحياة ومعركتها يحبو حبواً، وليس من الإنصاف أن يقارن وليد جديد بفتى يافع في بلاد العرب أو غيرها.

ولعل من أسباب ضعف هذا الأدب - وهو ما يشكل الملمح السادس أيضاً - أنه ما كاد يولد وقت تحرره من السلاطين .. إلا وقضى عليه بانتقال السلطة إلى المستعمر البريطاني ووقوع تطورات وتغيرات كبيرة في البيئة السياسية والجغرافية لشبه القارة انتهى بها - تقريباً - انتشار اللغة العربية كوسيلة أدب وعلم وتحولت إلى ذريعة كسب وارتزاق.

والملمح السابع أن هذا الأدب يعكس لنا الفصام الذي بينه وبين المجتمع الأدبي في ديار العرب في أجلى صوره، إذ رغم تحرره لم يحثك بالتيارات

الأدبية في الدول العربية ولا بالحركات الاجتماعية والسياسية بل لا نجد فيه ذكراً لشاعر كشوقي مثلاً وكان أقرب في مزاجه الإسلامي إلى أدباء العربية في شبه القارة.

ونحن في هذا الفصل نعرض نماذج من هذا الأدب نظنها - مع كل ما قلناه - نماذج متنوعة في النثر والشعر، وقد حرصنا على تناولها وفق الترتيب الزمني لأصحابها مقدمين النثر على الشعر.

بين أيدينا تجربة سياسية لقائد من قادة ثورة المسلمين ضد الاحتلال الانجليزي لشبه القارة عام ١٨٥٧م وكان قد فر بعد قمع الثورة فأصدرت ملكة بريطانيا عفواً عاماً فلما عاد مطمئناً اعتقلته شرطتها وحكم عليه بالسجن مدى الحياة ثم نفوه إلى جزيرة أندومان إلى أن وافته المنية في منفاه عام ١٢٧٨هـ، ومن حسن حظنا أنه كتب في منفاه كتاباً وشعراً باللغة العربية سجل فيه خواطره حول أزمنته .. يقول فضل الحق الخير أبدي في كتابه (الثورة الهندية):

"هذا ولما ابتلاني النصاري بالحبس بما اختلقوا من الخدع واللبس، نقلوني من سجن إلى سجن ومن حزن إلى حزن، وزادوني شجناً على شجن، وحزناً على حزن وسلبوني النعال واللباس، ولبسوا على كسى الكساء والكرياس، وأخذوا مني فراشاً ليناً حسناً، ومهدوا لي وطاء مؤلماً خشناً، كأنه شوك قتاد، أو جمر وقاد ولم يتركوا عندي إبريقاً ولا قعباً ولا أنية وأطعموني ضناً زناً، وسقوني مياه أنية، فعوضت من حميم دان بحميم أن، وبليت مع مالى من كبر وتوان بصغار وهوان في كل آن، ثم قذفني شط الخضم الكالح إلى شط الخضم المالح إلى جبل يستويل راس اسمه راس لا تزال الشمس فيه على سمت الراس. في شعاب صعب وعقاب فيها عقاب، وفجاج تغشاها أمواج

من بحر لجى ماؤه أجاج، نسيمه أحر من السَّموم، ونعيمه أضر من السموم، غذاؤه أمر من طعوم العلاقم، وماؤه أضر من سموم الأراقم، سماؤه غمام يطر الغموم، وسحابه الهموم يفيض الهموم، وأرضه كالجدري والحصبة حصباء، وريحه من النكبة نكباء، كل بيت فيه من الحشائش والقصب مملوء من الوصب والنصب لا يزال سقفه يكف، قطره كدمع عيني لا يقف، لا يزال يتعفن فيه الهواء فجَمَتْ فيه الأنواء، وهان الدوى وعز الدواء، وشاعت فيه الأوباء، وعم فيه الجرب والقوباء. ما فيه التئام لكليم، ولا سلامة لسليم، ولا علاج لسقيم، من يداوى فيه يداوى ومن يداوى فيه يودى، ومن أسى أساء وزاد في الأسى ومن أسى لا يوسى عليه ولا يواسى، وما من كرب في الدنيا يقاس على كرب ههنا يقاسى، ما فيه سقام إلا وهو داء عقام، فالحمى في مقدمة الحمام، وعموم علة السرسام، والبرسام علة تامة للسام وكَم فيه من مرض وسقم لا يوجد منه اسم ورسم من كتب الطب في رقم، والسعور يسعر حشا المرضى كالساعور والنطيس لا يحمى المريض ولكن يحمى عليه قبة الوطيس، فهو لا يعرف مرضاً، ويسقى المريض ما يصير به مرضاً. وإذا مات فيه أحد من الناس جر رجله أحد من الأناس الأذناس وهو كناس كانه شيطان خناس أو نسناس فيواريه بعد نزع ماله من اللباس في كثيب من رمل بلا تكفين وغسل، فلا يحفر له لحد ولا يصلى عليه أحد، هذا ولولا للميت فيه هذه الحالة الدنية لكانت فيه المنية هى الأمنية، وكانت فجأة الأجل هى الأمل الأجل، وكان المنى أقصى المنى ولو لم يكن قتل المرء نفسه في الدين محظوراً، وعذاب يوم الدين فيه محظوراً لم يرهق من جيئ به ههنا مأسوراً معسوراً، وكان النجاء ممن ابتلى به ميسوراً.

هذا وقد ابتليت فيه بأعراض عديدة وأمراض شديدة وقد عيل بها صبرى، وضاق بها صدرى، وامتحق بدرى وهان قدرى، وكيف الخلاص والمناص عما

شجاني فاعتاص، لا أدري. وبليت مع ما أقاسى من الكرب بشدة القوباء
والجرب، أتعذوا وأروح وجثمانى كله مصاب بقروح تربو على كلوم وجروح مع
مالى من أوجاع تحلل الروح تكاد تفضى بى البثور إلى الثبور والبور بعد ما
عشت عمرى في عافية وجبور ورفاه وحبور، قد كنت قبل مبتوراً والآن صرت
مبثوراً بل مثبوراً وكنت زمناً سليماً فرحاناً واليوم صرت زمناً كليماً قرحاناً،
أعانى شدائد مصائباً وأكافح من صعائب عصائباً.

حملنا من الأيام ما لا نطيقه كما حمل العظم الكسير العصائباً

ومع ذلك كله أحمد الله سبحانه، وأشكره على منه وفضله فإنى أرى غيرى
من الأسرى مثقلاً بأغلال مبتلى بأغلال يساق في أقياد ويقاد ويقتاد بقياد،
يسوقه ويقوده غليظ شديد حديد في قيود من حديد يسومه كل مهنة ومحنة،
ويبدى له كل حقد وإحنة، ويزيده أوجاعاً على أوجاع، ولا يرثى له إذا عطش أو
جاع، فأحمد الله ربى على المعافاة من هذه الآفات، وأشكره على ماله من المنن
وصيانتة إياى من هذه المحن.

وإنى وإن استيأست نظراً إلى ظاهر الأسباب من نجائى وقطعت رجائى
فإن أعدائى يجدون في إيذائى ويبغون بما يبغون إيذائى، وأودائى لا
يستطيعون مداواة دائى، وقد رسخت في قلوب العدى منى أضغان وحقائد
كما ترسخ في القلوب من الأديان عقائد، وقد شحنت صدورهم الوخيمة
بالشحناء والسخيمة لكنى أرجو رحمة ربى العزيز الرحيم، البر الرؤوف الكريم
الذى ينجى الضعفاء العاجزين....^(١) ويذكر ما أصاب الأنبياء وكيف فرج الله
عنهم ثم يخلص إلى الدعاء لنفسه.

والنص كما تراه أغفل القضية الأساسية وهي الاحتلال لبلاده، وركز على وصف المنفى في عبارات اعتمدت على السجع القصير والتلاعب بالكلمات والمفارقات اللفظية من قبل رجل كان مكرماً وعز عليه أن يهان.

ومن الموضوعات التي تناولها بعض الأدباء في نثرهم العربي في شبه القارة حركة التجديد التي قادها الدكتور السير السيد أحمد خان والتي شابته وعاصرت حركة التجديد التي دعا إليها الشيخ محمد عبده في مصر، وقد كتب حالي مقالاً في مآثر السير السيد أحمد خان يصور بذاته معالم حركته وسماء "جملة صالحة" يقول فيه:

"في مآثر ناصح الملة، وموقفهم من نوم الغفلة، الذاب عنهم في كل فتنة، والناصر لهم عند كل ملمة، الذي جعل همته مقصورة على إصلاحهم، ورأى لذة حياته في نجاحهم وفلاحهم، يهيم لهم في كل واد كصب هائم ولا يخاف فيهم لومة لائم، أعنى الدكتور سير أحمد خان ابن السيد متقى ابن السيد هادى الحسينى نسباً، والمدنى ثم الهروى محتداً، والدهلوى مولداً.

طلوع الثنايا بالمطايا وسابق إلى غاية من يستدرها يقدم

فاعلم أيها المخاطب الخليل أن هذا الشيخ الأجل الأمجد الهمام، والسيد الصنديد السמידع القمقام هو أول من تصدى لإصلاح حال مسلمى الهند في أواخر المائة الثالثة من الألف الثانى، وأفنى عمره كما أفنى ماله في نصحتهم والرافة بهم والشفقة عليهم والمجاهدة فيهم، وأول من ذب عن الإسلام وسافر لأجل ذلك إلى أوروبا، ونشر هناك محاسن الإسلام بين المسيحيين، وطهر ذيله عما افترضوا عليه ونسبوا إليه من المثالب والمساوئ (تعالى عن ذلك علواً كبيراً) وأثبت فضله على أديان أخرى بدلائل بينه، وبراهين متقنة سلك فيها طريق استدلالهم، ونسج على منوالهم، وهو أول من ادعى أن ديناً من الأديان لم يفك

رقاب الجوارى والغلمان عن ذل العبودية إلا الإسلام واستدل على دعواه بآيات من كتاب الملك العزيز العلام وأحاديث متصلة مرفوعة صحت عن النبي خير الأنام. وهو أول من عزم على التوفيق بين ما جاء به القرآن وبين ما شهدت به الحكمة الجديدة، وعلى رفع ما يتبادر إلى الأذهان من الاختلاف بينهما كما فعل علماؤنا المتكلمون في صدر الإسلام لما شاعت الحكمة اليونانية بين المسلمين وخافوا عليهم أن يقعوا في شبهات الملاحدة والزنادقة.

ولنذكر ههنا شيئاً يسيراً من مساعيه الجميلة التي كانت مستمرة مسلسلّة في نصرة الإسلام والمسلمين من سنة ١٨٥٧ ميلادية إلى زمان رحلته التي وقعت في أوائل سنة ١٨٩٨ ميلادية:

منها: أنه لما اضطربت نار البغى والعدوان في أقطار الهند من قبل العساكر الهندية سنة ١٨٥٧ ميلادية وكان مسلمو الهند إذ ذاك مظنة لخلاف الدولة الإنكليزية لما كانوا قبل استيلاء الدولة في نوع من العز والمكنة والسلطان في ممالك الهند، بادر الشيخ إلى تأليف كتاب في بيان أسباب البغى التي كان مرجع أكثرها إلى غفلة أركان الدولة وسوء تدبيرهم في الأمور السياسية، وكان الزمان زمان الأخذ والبطش والانتقام بحيث يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه، ويؤسرون، ويسجنون ويقتلون ويصلبون، فلم يسكت هناك عن كلمة الحق، وألقى بنفسه إلى التهلكة ليزيل كل شبهة تختلج في صدور أعيان الدولة من قبل المسلمين ويبرئ ساحتهم من كل سوء ويظهر ذيلهم عن كل رجس.^(١)

ويستمر حالي في عد جهود السيد أحمد خان الإصلاحية في مجالات التعليم والترجمة والسياسة والصحافة فتتضح ملامح حركة أحمد خان من

١ - ضميمه اربو كليات نظم حالي، محمد يعقوب مجدي، ص ١٢٤ - ١٤٤، الهند ١٣٣٢هـ.

خلال هذا المقال التثرى الذى لم يرد به حالى الحديث عن الحركة الإصلاحية بقدر ما أراد ذكر مناقب زعيم أعجب به ووافق فكره.

فإذا انتقلنا إلى الشعر وجدناه أكثر كماً وكيفاً فالخير أبادى الذى مر بك نثره وهو يصف حاله يبدو أن النثر لم يشبعه ولم يشف ما في صدره، فنظم حاله في قصيدتين قال في الأولى بعد أن حكى غدر ملكة بريطانيا به ووصف نفيه ومنفاه:

الأسر أنأى أسرتى وأقاربي	مامن حميم فيه إلا الماء
عميت على الأبناء أنبأى كما	عميت علينا منهم الأنبياء
أبكى لبعد أقاربي وأحبتي	ولهم على فقدى أسى وبكاء
حق البكاء لهم على إذ الردى	والعيش في الحبس الردى سواء
أسكنت وحشاً لا يرى فيه سوى الـ	شينين: الغريان والغرباء
مستويلاً وخماً فما بطعامه	شبع ولا في مائه إرواء
فالماء أن ما به رى كما الـ	مأكول زن ما له استمراء
ما فيه من عذب يسوغ ولا به	طعم يلذ ولا هناك فضاء
زادت على كرى عوارض جثتى	الفتق والقولنج والقوباء
وجدى لعافية عفت وعفت لى الـ	نكبات فيه وريحه نكباء
كانت لفضل الحق فضل مثالة	منها على الأمثال لى استعلاء
ووجاهة بين الوجوه وجاهة	تعولها الأعيان والرؤساء
وبراعة ورفاعة ورفاهة	ونزاهة ونباهة وعلاء
وجد وجد مسعد مع جدة	لم تبلها بلوى ولا بلواء

وتمام عافية وعرض زاده
كم نعمة زالت وكم من نعمة
الله أقناني علوماً يقتنى
حال النوى بينى وبين أحبتي
هجم الشرور وفاجأت فتن بها
قد سلط الأنصار في أمصارنا
لم يعلموا أن لا وفاء لهم ولا
من قبل ولاهم عليها من لها
والآن إذ نصر النصارى أفرطوا
أقوى ديار كن أهلة كما
فتفرقوا أيدي سبا واداركت
عال الغني وذل نو عز كما
قتلوا وغالوا جل من أخذوا وهم
غالوا براياهم برايا غيلة
كم خربوا بلداً ولم يدروا به
هدوا المساجد والقصور كأنها
بخست بخستهم زروع الأرض من
قدروا على الناس المعاش فقدرهم
فظهورهم ثقلت بأوزار بما
أفهل لعدوان تعدى حده
لم أقترف ذنباً سوى أن ليس لي
عرض يزيد وعزة وقعاء
حالت وحل الضر والضراء
منها علوماً جمّة علماء
حالا وحال الحال والنعماء
ذهب السرور وولت السراء
أن صار أنصاراً لهم سفهاء
أن لا لهم مندوحة ووقعاء
إذ صده عنها غنى وغناء
في الظلم فاخترم الضعاف جفاء
أقوى الألى أقووا وهم أمراء
فرقاً كثيراً أخذة وسبباء
هان الخطير وصغر الكبراء
مما ادعوا من جرمهم براء
فجرت كما انفجر العيون دماء
بلداً فصار كأنه بيضاء
لم تبين لم يك ثم قط بناء
شؤم فلا ريع لها ونماء
أن لا غداء عندهم وعشاء
شحت بطون صدورهم شحنا
حد وهل للمعتدين جزاء؟
مع هؤلاء ———— وودة وولاء

فولأؤهم كفر بنص محكم ما فيه للمرء المحق مرء
كيف الولاء وهم أعادى من له خلق السما والأرض والإنشاء^(١)

ويتحول بهذا البيت إلى مدح النبي صلى الله عليه وسلم، ثم يتوسل به
وبآله وأصحابه كي يفرج الله عنه كربيه ويفك أسرهم، ويهزم الظالمين وينصر
المظلومين، ولعلك ترى أنه كرر نفس المعانى التى ذكرها في نثره، وتلاعب
بالألفاظ، وأغرق في المحسنات من جناس بأنواعه وطباق وتورية ولم يزد في
قصيدته الثانية ومطلعها:

عودى فعودى مريضاً داؤه عادى أشفى على الحين حتى عادته العادى
عن نفس المعانى بل استخدم نفس الألفاظ واتبع ذات المنهج والأسلوب، ونحن
ننقل لك جزءاً منها يقص فيه حاله وما جرى له ويصف منفاه. يقول:

حبست في السجن منجوداً ولم يذروا عندى رفيقاً كخباز ونجاد
وقد كسونى كساء بعد ما سلبوا الد كساء وانتزعوا لبسى وأزوادى
أعطوا وطاء غليظاً شائكاً خشناً لنوم لين بلين الفرش معتاد
سقوا أجاجاً حميماً إن شكوت صدى وأعتدوا لى غذاء غير معتاد
لم يقنعوا باحتباسى بل أضيف إلى حبسى جلاى وتغريبى وإبعادى
فأركبونى وأسرى آخرين على فلك يمر بموج البحر مبياد
وأنزلونى مع الأسرى على جبل قاص تنى دونه أوهام قصاد
شط المزار بنا إذ شط حاسبنا بشط بحر له مدد بإزباد
أرواحه تنزع الأرواح من خبيث كصرصر أرسلت قبلاً على عاد^(٢)

١ - باغي هندوستان: ٢٠٥ إلى ٢٠٩ . ٢ - باغي هندوستان: ص ٢٢٢ - ٢٢٤

وينتقل الشاعر بعد ذلك إلى الدعاء إلى الله و التوسل بالنبي الكريم لينقذه مما هو فيه ويفك قيده. وواضح أن القضايا السياسية العميقة مما يتعلق بالاحتلال الإنجليزي وزوال ملك المسلمين في الهند لم تجد لها مكاناً بين أبيات شاعرنا، وإن كانت القصيدتان تصوران ما يمكن تسميته بانتهاكات حقوق الإنسان وسوء حاله السجون، كما تشير إلى المظالم التي كان يرتكبها الإنجليز ضد العلماء والمعارضين لسلطانهم الظالم على الهند.

ولقد كانت الحرب بين روسيا والعثمانيين سنة ١٢٩٤هـ من القضايا الدولية التي جذبت التفات شعراء العربية في شبه القارة، ولكن لم يشحذ قرائحهم أسباب هذه الحرب ولا آثارها على الدولة العثمانية وما أدت إليه من نتائج على العالم الإسلامي، إنما انزعجوا لكون الحرب ضد السلطان عبد الحميد رمز الدين وبقية السؤدد الإسلامي، ولم تشغل أصحابنا الحرب العالمية الثانية وقنابلها النووية وابتلاع فلسطين وتأسيس إسرائيل على أرضها لأن السلطان عبد الحميد أو غيره من سلاطين المسلمين لم يكن موجوداً آنذاك، وربما وجدوا صعوبة في الانفعال بهذه الأحداث لعدم وجود من يستحق المدح أو الرثاء لأن أفكارهم حول هذه المفاهيم الدولية، عادة ما عبروا عنها تحت مظلة المدح أو الرثاء.

وبين أيدينا قصيدتان طويلتان الأولى لفيض الحسن السهارنبوري (ت ١٣٠٤هـ) والثانية لذى الفقار على الديويندي (ت ١٣٢٢هـ) كلاهما يمدح السلطان العثماني عبد الحميد ويتعرض لحربه مع روسيا.

يقول السهارنبوري:

مالي بذى الأرض من وال ولا واق	ولا طيبــــيب ولا آس ولا راق
ولا حميم ولا جار ولا سكن	ولا نديم ولا كأس ولا ساق
أبكى على بكاء غير منقطع	فلينظر الناس أجفاني وآماقي
حولى كثير من الأعداء همهم	قتلى ومالى دون الله من واق
قوم غلاظ شداد شيط من دمهم	شراسة وعتوا في سوء أخلاق
جفت نفوسهم قست قلوبهم	فلا تميل بشئ من تملقي
إنى أخاف على نفسى تألبهم	على أشفق منهم كل إشفاق
فسوف أوى إلى جلد أخى ثقة	ذمر كمى إلى التقتال مشتاق
حامى الذمار حمى الأنف ذى أنف	طلق اليدين طويل الباع سواق
عاد إلى قتل قتل غير مكترث	إذ تكشف الحرب للأبطال عن ساق
شاكى السلاح إلى الرايات مبتدراً	صدق المقام إلى الغايات سباق
عن آل عثمان سامى الطرف مبتسم	إلى الطعان شديد البأس مشتاق
قوم إذا ما غزوا فازوا ببغيتهم	ولا يعودون في شئ باخفاق
فتيان صدق أولو بأس ذوو كرم	لا يجلسون لدى قوم باطراق
هينون لينون لا يرمون في خلق	بسوءة وتراهم حسن أخلاق
بيض كرام لهم مجد ومكرمة	غراء يثنى عليهم كل ملاق
لا يرغبون إذا نالوا منالهم	في المال والخيال والأحمال والناق
إن سيم أصغرهم خسفاً ومظلمة	يغضب إلى السيف فرداً غير مفتاق
لا يصبرون إلى ما لا يليق بهم	وإن تمالى عليهم جمع فساق

يسقون عذباً فراتاً طاب مورده لا يشربون بغسلين وغساق
يوفون بالعهد إن يرموا بمنقصة فلا يخاف لديهم نقض ميثاق
لا يبخلون على من جاء يسألهم وما لأبوابهم عهد بإغلاق
جادوا بأموالهم جادوا بأنفسهم ولا يزالون في جود وإنفاق
نثنى عليهم وما نثنى وقد كبروا عن الثناء بتبليغ وإغراق^(١)

ويكرر ذو الفقار على الديوبندى نفس المعانى في قصيدة من نفس البحر
ليس فيها من شئون الحرب كما فيها من المدح للسلطان عبد الحميد، يقول:

يا قاسى القلب يا من لج في عذلى إليك عنى فإنى عنك في شغل
وكيف تعرف حال المستهام أيا من لم تصبه سهام الأعين النجل
نام الخليون في خفض وفي دعة وقد أرقى بدمع سائل همل
قد صادنى عرضاً روسية غنيت بحسنها عن جمال الحلى والطل
سفاكة وحياة العاشقين بها فتاكة وهى مع ذا مرهم العلل
هيفاء ضامرة لمساء غادرة ييضاء ساحرة بالغنج والكحل
كالشمس تيدو جهاراً غير خافية ولا تسرّ بالأسرار والكلل
رنت إلى بعينى جوذر ففدا قلبى جريحاً بجرح غير مندمل
فيا بنى الأصفر التزوير شيمتكم تلقىكم خودكم في الشر والغيل
قولوا لها الآن إن شئتم فلاحكم أن صبك المبتلى لا تهجرى وصلى

١ - ديوان الفيض: ص ٤٨ - ٥٠ الهند ١٣٣٤هـ، ونزهة الخواطر: ٣٦٧/٨ كراتشى ١٩٧٦

إن لم تتب من جفاها قد عزمت على أن أستغيث بسلطان الورى البطل
 عبد الحميد أمان الخائفين مبيد سد الظالمين سديد القول والعمل
 كهف الأنام مغيث المستضام له إلى أقاصى المعالى أقرب السبل
 العادل الباذل المرهوب سطوته في الجود كالبحر بل كالعارض الهطل
 غوث الورى خادم الحرمين معتصم الـ مكروب غيث الندى يهمل بلا مطل
 شههم همّام أمير المؤمنين وسلـ طان السلاطين نجل السادة الأول
 رأس الكماة إمام للغزاة ومقـ دام الحماة لدين أشرف الملل
 غشمشم ندس قرم أخى ثقة ماضى العزيمة من خمر العلى ثمل
 لله جيشك أبطال النزال ومن في الكر كالليث في التمكين كالجبل
 أبناء حرب قتال العليج بغيتهم أساد حرب لهم غاب من الأسـل
 الخائنون غمار الموت من طرب والقادرون على الأقيال والبسل
 قضوا حقوق المعالى بالسلام والـ بيض القواضب والعتالة الذبل
 عبد الكريم عظيم الجيش يقدمهم ثبت الجنان قوى القلب في الجلل
 النصر يقدمه والفتح يخدمه والله يحميه من زلل ومن خطل
 يا آل عثمان يا فخر الكرام ويا خير الأنام لأنتم منتهى أملى
 صيد الملوك صناديد القروم أما ثيل السلاطين في الإعطاء كالسبل
 جزاكم ربكم خير الجزاء عن الـ إسلام إذ قد نصرتم سيد الرسل
 أغناكم الله بالنصر المبين لكم عن الإعانة بالأنصار والـخول
 ولو دعوتكم أولى التقوى لخدمتكم لبّاكم الكل من حاف ومنتعل

من كل مصطدم لله منتقم
سئلوا سيوفكم والله ناصركم
حتام حلمكم يغريهم وإلى
تباً لقوم بغوا كفرأ بنعمتكم
فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم
للهدم ما رقعوا للخرق ما وقعوا
للسبي ما ولدوا للحررق ما حصنوا
لله دركم لله دركم
سقوا كؤوس الردى كرهاً وقد شربت
حماكم الله ما أمضى سيوفكم
يا أيها الملك اليمون طلعتة
وكيف دسوا وقد حثوا البغاة على الـ
جاءوا لحربكم معهم فردهم
لما رأوكم تولوا مدبرين ومخـ
فالكفر في خطر والدين في ظفر
أضحت سيوفهم أمست مدافعهم
يابئس ما اقترحوه من وقاحتهم
وقد أصبتم إذا أعرضتم أنفأ
أخزاهم الله ما أغباهم فنسوا

ليث الوغى غير هياب ولا وكل
على الطغاة من الأوغاد والسفل
متى سيوفكم في الجفن والخلل
فأهلكوا لوبال المكر والدغل
بين البلاقع والغابات والطلل
للنهب ما جمعوا بالزور والبخل
للسب ما حشدوا بالغدر والدغل
إذ قد تداركتم العطشى على عجل
طوعاً دماء هم الأسياف بالعلل
قطعتموهم وهم أكسى من البصل
أما ترى الورس في التزوير والحيل
غدر الشنيع فجوزوا الذل بالفشل
ظبى سيوفكم بالويل والإلل
ذولين ما اكثرثوا بالأهل والثقل
والروس في خجل والروم في جذل
في الغمد من عطل والحرس من صحل
بدعاً فيأنف منه كل ذى نبيل
عن قول كل سخييف الرأي مبتذل
قدماً هزيماتكم في الأعصر الأول

هذا وإذا جربوا فيكم مجربهم عادوا ندامى كما قد قيل في المثل
وقد دعانى إلى الإنشاء مجدكم قسراً فلست بأهل الشعر والغزل
أبقاكم الله في عز وفى شرف وفي علو وفى مجد وفى زعل
أعداؤكم في حضيض الذل من خبل أحبابكم من ذوى العلياء في تلل
بهاشمى كريم سيد سند هاد بشير نذير سيد الرسل^(١)

ولعلك ترى في وضوح تأثر الشاعر إلى حد كبير بالمتنبى حتى في انتقاء الألفاظ وذلك لأنه كتب شرحاً باللغة الأردية لديوان المتنبى الذى كان جزءاً من مقررات الدرس في المدارس الدينية في شبه القارة.

وقد انشغل كذلك بحروب العثمانيين أنور الكشميرى (ت ١٣٥٢هـ) فكتب قصيدة قال فيها:

أو ما ترى لما عدت عن طورها غدارة اليونان والبرطانى
حتى غدوا لا يؤمنون لربهم وتنصلوا من خلقه الإنسان
فازداد شر في البسيطة منهم ما كان يحكى منذ جنكيز خان
أو ما ترقرق عينهم أو قلبهم من رحمة الصبيان والنسوان
وأتوا بما لم يلف في سلف المدى ويضيق منه نطاق كل بيان
وهناك يبدوا فرق من عبد الهوى ممن تجاه الرب في إحسان
أجيال كفر قد عدوا حتى رأوا عيان ما لم تسمع الأذان
فاستدرجوا حتى تفارط أمرهم في الفى والطغيان والعدوان
حتى تدارك رحمة من ربنا من دوله الإسلام من عثمان^(٢)

١ - نزهة الخواطر: ١٤١/٨ إلى ١٤٣ .

٢ - المنتخب من الشعر العربي نشرة يصدرها قسم اللغة العربية بجامعة عليكرة، ص ٢٥١ - ٢٥٢ . الهند ١٩٩٠

ويبدو أن انفراط عقد الخلافة العثمانية وتردى أوضاع المسلمين، وزوال سلطانهم وتقطع امبراطوريتهم وما حل بهم من ضعف أثار عاطفة بعض الأدباء فانفعلوا به ونظموه شعراً، مثل وحيد الدين العالى الحيدر ابادي (ت ١٣٤٤هـ) الذى نظم ملحمة في رثاء الأمة الإسلامية طولها مائة وسبعة عشر بيتاً على غرار مراثية الأندلس التى نظمها صالح بن رندى، ومن أسف أننا لم نعثر على مراثيته كاملة، وما وصل إلينا منها غير ثلاثين بيتاً يقول فيها:

هل من سبيل إلى وصل الألى بانوا	بينى وبينهم بيد وقيعان
أو للزمان رجوع، بالوصال إذا	كانت له كالرحى في الدور أحيان
أو للدموع وقود وهى جارية	تدمى شئون أراققتها وأجفان
أو عن هموم أقاسيها بحبهم	لقلبي الهائم الولهان سلوان
أنى خمود لنار في الغرام بها	ما في الجوانح والأحشاء لهبان
من لى بشوقهم هاد يدل إلى	أرض بها لى أوطار، وأوطان
أين السروب التى سارت بها ظعن	لى إثرها كان إعوال، وإرنان
بيض كواعب مذ شدت ركائبها	قلبي إليهن مشتاق وحنان
إذا النسيم بأنفاس لهن سرت	تفوح كالمسك أنقاء وكثبان
لم تخل دورهم لكن بها سكنت	بعد الخرائب أرام وغزلان
لولا تذكر أيام لهن مضت	وشوق ربع أقامت فيه جيران
لما ذكا تحت صدرى ما يحرقه	ولم يذب لى قلب وهو هيمان
أخشى زفيراً وإعوالاً ينازعنى	ألا يبوح بسر الحب إعلان

عيني تفيض على صدر به حرق حباً لتجمع أمواه، ونيران
 وفتية عذلوني حين هيج لي نوح الطيور بكاء فيه أشجان
 تقول مالك تبكى في اشتياقهم لكل طير لها في الأيك ألحان
 فقلت ويحكم مهلاً لأنى بي حزن تسعره كالنار أحزان
 لما مضوا طفقت تعفو ديارهم كأنها مصحف تمحوه أزمان
 حتى غدت بمرور الدهر طامسة تزعزت سقف منها وجدران
 فقد وقفت بها ذا وحشة وأسى إذ أقفرت وبها أدم ووحشان
 قلبي به ألم، كالنار مضطرم والدمع منسجم والجفن مألن
 أدور ألتئم ترباً في محلهم كائننى فيه نو الأشواق نشوان
 يا راكب الخيل قد طارت به عجلأ بلغ سلامى صحبى أينما كانوا
 طول ادكارى لهم ليلى يطول به وإن يكن منهم للصب نسيان
 مالى أرى زمناً بالشر يحزننى وظل يلقف قومى وهو ثعبان
 أين الألى أدركوا بالسعى من رتب ما لا يسامته بدر، وكيوان
 أين الألى ملكوا شرقاً كما ملكوا غرباً وسادوا الورى حتى لهم دانوا
 أين الألى طلعت شهب العلوم بهم حتى استنارت بها في الأرض بلدان
 أين الألى رتقوا فتق الورى وحموا ديناً به نسخت في الناس أديان
 أين الألى نور الأرجا سراجهم وزال عنها بهم كفر وطغيان^(١)

١ - المنتخب من الشعر العربى، نشرة يصدرها قسم اللغة العربية بجامعة عليكرة، الهند
 ١٩٩٠ ص ٣٤٧ - ٣٤٨ .

ومن القضايا التي شلغت كثيرا من الأدباء في العالم الإسلامي في القرن العشرين وما زالت تشغلهم أنشطة التبشير، والأدب العربي الحديث خاصة خلال النصف الأول من القرن العشرين فيه نماذج غير قليلة من قطع شعرية ونثرية عالجت هذه الظاهرة، أو تحدثت عنها بشكل أو بآخر، ولم يكن شبه القارة غير مسرح من المسارح التي شهدت أنشطة مكثفة للمبشرين المسيحيين إبان الاحتلال البريطاني وبعده فلا غرو أن تنشر هذه الأنشطة مشاعر الأدباء. يقول مولانا أصغر على روى المتوفى سنة ١٩٥٤م في قصيدة له يخاطب فيها مبشرى النصارى:

أعباد المسيح لنا سؤال	نريد جوابه ممن وعاه
إذا مات الإله بصنع قوم	أماتوه فما هذا الإله
وهل أرضاه مانالوه منه	فبشراهم إذا نالوا رضاه
وإن سخط الذي فعلوه فيه	فقوتهم إذن أوهت قواه
وهل بقى الوجود بلا إله	سميع يستجيب لمن دعاه
وهل خلت الطباق السبع لما	ثوى تحت التراب وقد علاه
وهل خلت العوالم من إله	يدبرها وقد سمرت يداه
وكيف تخلت الأملاك عنه	بنصرهم وقد سمعوا بكاه ^(١)

١ - مولانا أصغر على روى، بحث مقدم من نو الفقار على رانا لنيل الدكتوراه في الأدب

العربي من جامعة البنجاب، ص ٣٨٦ - ٣٨٧ .

والشاعر في هذه القصيدة لم يمس أنشطة التبشير في ذاتها وما يكمن وراءها من مخططات ودعم وسلطات، فجاء شعره أشبه بمناقشة لعقائد النصارى وتفنيدها، ونحن لا نتوقع، ولا ينبغي لنا أن نتوقع من شاعر أن يناقش هذه الأمور كما يناقشها رجل السياسة، إلا أن سطحية التناول واضحة بلا ريب.

ولقد كان تقسيم الهند وتأسيس باكستان أهم حدث في القرن العشرين في شبه القارة، ولا بد أن هذه الحدث أسعد أناساً كما ألم آخرين، لكن الحدث نفسه لم يهز مشاعر من انفع به كما هزها موت البطل المؤسس محمد على جناح في ١١ سبتمبر سنة ١٩٤٨ وبعد تأسيس الدولة بعام كامل ولقد كان من الطبيعي أن تحرك قرائح الشعراء تلك المذابح التي وقعت ضد المسلمين أثناء التقسيم، وهجرة الهندوس إلى مناطق أكثريتهم في الهند وترك المسلمين دورهم ومتاعهم في الهند ورحلتهم إلى باكستان ليقيموا في مخيمات ويبدأوا حياة جديدة، ولقد كان من الطبيعي أن تثير نشوة النصر بتأسيس دولة للمسلمين نفوس الأدباء فيسجلوها لنا شعراً ونثراً، لكن هذا كله لم يحدث لأن الأدب العربي في شبه القارة ليس أدباً طبيعياً يخاطب أهل مجتمعه كما ذكرنا من قبل، ومع هذا فقد وجدنا ذكر شئ من هذه الوقائع عند الدكتور صوفى محمد ضياء الحق المتوفى عام ١٩٨٩م وإن كان هذا الأثر مذكوراً ضمن قصيدة في رثاء مؤسس باكستان محمد على جناح رحمه الله، يقول الدكتور صوفى:

بعقوتنا غراب البين صاحبا أصاب الموت قائدنا الجناحا
إذ الناعى نغاه لنا صباحا علا صوت الجميع بواصباحا
رمى الحدثان قوم المسلمينا فلم يجدوا من القدر البراحا
وما من مسلم في الدهر إلا عليه بقلبه بگى وناحا
أخو ثقة وذو رأى سديد غيور حازم حاز الرباحا
وفى صادق قولاً وفِعْلاً فعرف وفائه كالمسك فاحا
طويل الباع ذو ظرف وسيع رحيب صدره نال انشراحا^(١)

وكما انفعَل الدكتور صوفى بموت جناح، انفعَل أيضاً بالحديث عن الوحدة الإسلامية وهي حلم يراود أهل باكستان أكثر من أى شعب آخر، لكن هذا الانفعال مرة أخرى يصاغ في شكل قصيدة مدح يستقبل بها الملك السعودي فيصل بن عبد العزيز في مؤتمر القمة الإسلامي الذي عقد في مدينة لاهور عام ١٩٧٤، يقول فيها:

أيا ضيفنا أهلاً وسهلاً ومرحباً عليك سلام الله ما هبت الصبا
ويا زائراً من أرض أكرم بلدة لها الذكر ما أحلاه فينا وأطيبا
حدى بك من بعد هوى للقائنا صنيعةك هذا لم يكن مترقبنا
لقد سرنا أن قد وطئت بلادنا وقد هزنا والله هذا وأطربا
يقول الورى لله درك قادمأً سقيننا به من رحمة الله صيبا
ونادى مناد بيننا بقُدومه فشق منا سامعين ورغبنا

١ - أمدنى بهذه القصيدة تلميذه الدكتور خورشيد رضوى.

فيا ساكنى لاهور بوهوا وأبشروا على حالنا لا غرو أن نتعجبا
فما كان يأتى البحر عطشى ليشربوا ولكن أأتانا اليوم بحر لنشربا^(١)

لكن الشاعر في هذه القصيدة نسى ما هو أهم من استقبال الضيف ومدحه من أحداث خلال المؤتمر الذى يعتبر معلماً من معالم التاريخ الحديث في باكستان لما صاحبه من ظروف دولية وداخلية، وإن كان ثمة من دلالة فهى أن أدباء العربية في شبه القارة لم يفرّدوا للأدب السياسى موضوعات مستقلة برأسها وإنما نظموا ما شاءوا من ذلك في أنسجة قصائد المدح أو الرثاء فكان أدبهم في أكثره يدور حول أقطاب الشخصيات لا القضايا والموضوعات، وربما كان ذلك من آثار ارتباط الأدب العربى في هذه المنطقة بالوجهاء والأمراء والسلطين .

ولم يستطع تلميذه الدكتور خورشيد رضوى رغم ما أوتى من سليقة شاعرة وقريحة متقدة أن يخرج عن الإطار التقليدى، فيتحدث عن موضوعات وقضايا بعد فصله لها عن المدح، خاصة إذا كانت قضايا ساخنة كمشكلة أفغانستان مثلاً، ويبدو أن هذه السمة أساس في مدرسة الشعر العربى في شبه القارة يحذو الأخلاف فيها حذو الأسلاف. يقول الدكتور خورشيد رضوى في قصيدة له:

١ - حصلت على هذه القصيدة من تلميذه الدكتور خورشيد رضوى.

أخوتنا الأفغان فيكم بسالة وفي دار أهل الكفر منها زلازل
 رددتم بيأس كيدهم في نحورهم ولم تخضعوا للخطب والخطب هائل
 أقمتهم بضرب السيف زيغ قلوبهم وبالسيف تتراض النفوس الموائل
 يهابونكم رغم الهزال بدا بكم وتخشى الكلاب الليث والليث ناحل
 أباة كماء لا تفل سلاحكم حوادث دهر خائن وغوائل
 إذا مسكم جهد البلاء تناثرت بقلبي أمان كالزهور ذاويل
 وفيكم خصال للمديح كثيرة وما عندنا إلا قواف قلائل
 وتدعو لكم عن ظهر غيب مودة شعوب تناجي ربها وقبائل
 سيغمركم في الحرب فوز ونصرة فتعلونهم، لن يغلب الحق باطل^(١)

حتى من تأثروا بعاصفة الصحراء وأزمة الكويت لم يخرجوا أيضاً عن
 المدح. فمحمد حسين اقبال نظم قصيدة طويلة في هذه المناسبة جاء معظمها
 مدحاً في الرئيس العراقي صدام حسين يقول مثلاً:

قف عند صدام ملياً إنه أسد وحيد حامل الأعباء
 زين الملا غيظ العدى لبقائه مرفوعة أيدي الورى بدعاء
 سطعت على الإسلام شمس سعادة والمسلمين وهم كفقع عراء
 صارت بصدام وجوه المسلمي ن وضيئة كالبدر في الظلماء
 وعلت رؤس المسلمين بسعيه من بعد ما عدوا من الضعفاء^(٢)

١ - مجلة أفغانستان الصادرة في إسلام آباد، يوليو ١٩٨٧م، ص ٣٣ .

٢ - حديث النفس : ص ٦٣ - ٦٧ ، لاهور، ١٩٩٥ .

لكن القاعدة التي نشأ عليها الشعر السياسي العربي في شبه القارة شذ عنها حميد الدين الفراهي الذي يمكن اعتباره الشاعر السياسي الوحيد في هذا الأدب. فالفراهي المتوفى ١٣٤٩هـ، لم ينظم كثيراً في أغراض عصره كالمديح والرتاء والمواظ، بل كان معظم شعره في السياسة وقد جمع بدر الدين الإصلاحى قصائده العربية كلها في ديوان خفيف وطبعه عام ١٩٦٧م، ولقد كانت أحوال السلطنة العثمانية في أواخر عهدها، والحرب بين إيطاليا وليبيا وصلح العثمانيين مع إيطاليا وثورة البلقان هموماً إسلامية أرقت شاعرنا فنظمها في قصائد عديدة وربط كل هذه الأحداث بوضع العرب خاصة والمسلمين عامة . يقول:

كيف القرار وقد نكس	أعلمنا بطرابلس
كيف القرار وحولنا الـ	أعداء ترتقب الخلس
من كل ذئب إن رأى	من عزة فينا اختلس
أو أفـعـوان مطرق	إن لم نبـادـره نهـس
نبكى على إخواننا	بين القتيل ومن حبس
كم من تقى طاهر	فيهم ونحرير دنس
نبكى لربات الخـدو	ر شـرقـن بالماء السلس
جرت الحتوف على الألو	ف من الزحفوف ومن جلس
هم أهلنا وعشيرنا	أفـيـألمون ولا نحس
يا أمة الإسلام يا	أبناء أباء شـمس
هل تنعسون وخصمكم	عن كيده ما إن نعس

إلا تهبوا اليوم فال
 قد زلزلت أركانها
 فالخصم يجهد أن يرى الد
 هل لا ذكرتم ما أصاب
 سلبوكم شطر البلا
 أفكل يوم ينكص الد
 هل يذهب الحق النقب
 هل ترتضون بذل ديد
 والله لا نرضى به
 فالיום إن لم تدفعوا
 إنى أرى فتناً تمو
 ناراً تأجج في البلا
 يبغون قسطنطيني
 قد صيح في جراتها
 فلننضحن أو نقتلن
 فاحموا زمار الملة الد
 واستجمعوا عدداً فما
 أعنى المراكب والمداد
 وتعلموا حيل الحرو
 فتأهبوا وتألبوا
 إسلام يتعس بل تعس
 حتى تقعقعت الأسس
 إسلام في يؤس يؤس
 ب المسلمين بأندلس
 د وما لها من ملتمس
 إسلام حتى يندرس
 ي ويغلب الكذب الرجس
 نكم وليس بملتبس
 ما دام فينا من نفس
 فليأتين يوم نحس
 ج وقد ظهرن لمن حدس
 د وقد تلهبت الأطس
 ع وبعدها أرض القدس
 ولتسمعن لها الجرس
 عن قدسنا القوم النجس
 بيضاء كالأسد الشكس
 تجرى السفين على اليبس
 فع والكتائب والحرس
 ب لتغلبوا الخصم الشرس
 وتلببوا لوغى ضرس

واستنصروا الله المهيـ من في العشى وفي الغلس

ولينصـرن الله من

ينصره فليحتـمس^(١)

ويقول في قصيدة أخرى عن مظالم الاستعمار الإيطالي في ليبيا:

يا عين بكى بالهـوامع	لا ترقـآن لك المدامع
قـتلى طرابلس الذيـ	ن تطحطحت بهم القـوارع
نبكى على إخـواننا	أهل المكارم والدسـائع
دهمتهم الروم الفـوا	تك بالمراكب والمدافع
جاروا على حرد بجمـ	عهم فضاق بنا المـفازع
دخلوا المدينة يقـتلو	ن بها المشايخ والرعارع
قتلوا المراضع في المضاـ	جع والضوارع في الشـوارع
وعلوا بطيـاراتهم	يتحسسـون لنا المواقع
صارت تحلق فـوقنا	مثل الغـرانيق الطوالع
يرمون منها بالكريـ	ن تمج بالزبر القـوارع
ليـبـدوا أفراسنا	ويحرقوا منا الوشـائع
لا دين عندهم ولا	حلم عن العـددوان وازع

يبدون نصرانية	زوراً وقد رفضوا الشرائع
بل يشتمئز الكفر مم	لا يركبون من الشنائع
البغى من أخلاقهم	والغدر سيط من الطبائع
غررو بأن البعدي	ن العرب والأتراك شاسع
وبأن بين قلوبنا	صدعاً من الأضغان واسع
يا ضلة لم يعلموا	أن الخلافة خير جامع
فلنبذل لها النفوس	س ودون حوزتها ندافع
ما الترك إلا مثل كف	الباسل العادي الأشجاع

والعرب مثل أصابع
لا كف إلا بالأصابع^(١)

ويعاتب الترك لمصالحتهم إيطاليا قائلاً:

ياترك ! لا تبغوا الهوينا	لا تنعموا الحساد عينا
أتسالمون الظالمين	من الغانمين لما حمينا
الناهبين بلادنا	والغاصبين لما حوينا
أتسالمون عونا	وتركتمونا بين بينا
هل لا نكسرتم يوم ألك	ققيتم أموركم إلينا

كنتم لنا الإخـوان اذ في الدين والود استـوينـا
 فنفسـوسنا ونفسـوسكم خلطت معـا لما التقينا
 حتـى تخالطنا كـام واج الخليج إذا جـرينـا
 نحـمى الخلافة بالسـيو ف الباترات إذا انتـضينا
 فـربت حدائق مجـدها بدمائنا لما سـقينا
 تنبى عـيون الكاشـحـي ن الحاسدين لما سـعينا
 أفـبـعد ذاك تخـاذلو ن وتذهبـون فـأين أينـا
 إن العـددوهم هم لو تبصرون كـما رأينا
 هل تـأمـنونهم فـقـد غـروكم زوراً ومـينا
 كـالصل يطرق ثم يقـد طرنا به سـمماً وحينـا
 فلئن بدا لكم مـسـا لمة العـددو لـقـد أبينا
 لا سلم بالـطليان حتـى سـى يتركـوا بلدأً ثوينا
 نـنفسـيهم عن أرضنا لا نـرعوى عما قـضينا
 فـالموت خـير من حـيا ة تحـتـوي ذلاً وشـينا
 إننا لأحـرار نـعـد د القـتل للأحرار زينا
 صـبـر إذا لج الوغى لا نشـتكى نصـبباً وأينا
 مـثل الجبال الشـم نـحـد تـقر السـيول إذا أتينا
 لا نـرهـب الطليان إن يـستكثـروا فـلـقـد كـفينا
 نـلقـاهم بهـشـين نـقـد ريهـم كـما كـنا قـرينـا
 بيضاً كـشـحم الكوم لم تـرفوقها صدأً وريـنا

حتى يقال لنا بحق	النازلين لقد وفينا
كم نابنا حـرب الملو	ك فلم نمل ولا ونينا
لم يبسطوا الأيدي إلا	ما كسرنا أو لوينا
لم يرفعووا الأعناق إلا	ما قطعنا أو كـوينا
حتى انثنوا طراً سوى	جمع قتلنا أو سبينا
لولا الحماسة والحمما	ية قفر ليبا ما امتطينا
فحرورها وصخورها	مما ارتدنا واحتـدنا
نصلى بنار الحرب أجـد	أداً صهرنا واشتـوينا
لا نبتغي الدنيا وزهـ	ر تها فبالله اكتـفينا
لا هم في ترف فـأسـ	باب الغواية ما ارتضينا
فـالله نعبيده وعـبـ	اد الصليب فقد قلينا ^(١)

ويتألم الفراهي لماعناه المسلمون من حروب في البلقان فيقول:

شبت على بلقان نار الحروب	أشعلها بالبغى أهل الصليب
لم تبق في الأفق أرض بها الـ	إسلام إلا نالها من لهيب
قد حزب الشيطان أحزابه	وحثهم لكل شر وحبوب
شنوا على الإسلام غاراتهم	يذهل فيها عن حبيب حبيب
يا كرد يا تاتار يا كابل	ياكل من لله عبيد منيب

أوفي شمال الأرض أوفي جنوب	في مشرق الآفاق أو مغرب
ذب العدى عنه فهل من مجيب	يدعوكم الإسلام جهراً إلى
واستنفروا من كل مرد وشيب	قوموا لنصر الحق من فوركم
بنصره الموعد غير الكذوب	مستنصرين الله ينصركم
في الكفر والأوثان تبقى ندوب	كنتم سيوف الله من وقعها
قد مسكم من الجهاد لغوب	فالآن يا إخوان ما بالكم
حل على الإسلام يوم عصيب	ما بالكم لا تنفرون وقد
فإن أمر الله يبلو القلوب	يبلوكم الله ببأس العدى
فإن الله علينا رقيب	إن تصبروا لله لا يخزكم

يا قومنا إن تصبروا يأتكم
نصر من الله وفتح قريب^(١)

نحن أمام لون مغاير لما مضى لم يهتم فيه الشاعر بالمحسنات والبدائع بل
عبر عن أفكاره تعبيراً مباشراً.

ولم يجد مدح ملك من الملوك أو جماعه من الناس فرصة لبيان فكره
السياسي، وإنما عالج الموضوعات مباشرة بلا واسطة. ونحن أيضاً نشعر أننا
أمام شاعر يحمل في صدره هموم العالم الإسلامي، يتألم لليبيا إذا احتلت
ويفرح للمسلمين إذا انتصروا، ويشمت في أوروبا إذا اشتعلت بالحروب، هو

شاعر الوحدة الإسلامية لا تكبل أحاسيسه الحدود الجغرافية ولا القيود النسبية. كائن وأنا أطلع شعره وفكره أعيش مع شاعر ينتمى إلى إحدى الحركات الإسلامية المعروفة في عالمنا اليوم وقد مر على رحيله أكثر من خمسة وستين عاماً، ولا غرو فقد كان مفسراً جيداً له بالشيخ رشيد رضا المصرى روابط، واستفاد منه أبو الأعلى المودودي، وقد انضم إلى حركه الخدام (خاكسار) وهى حركة إسلامية تدعو إلى الوحدة الإسلامية بين الشعوب والمذاهب اتخذت من الكفاح المسلح وسيله فقضى عليها الانجليز.^(١)

وقد عاصر الشاعر تأسيس حركة الإخوان المسلمين في مصر واطلع على فكرها حتى ساوى بعض الكتاب بينه وبين الشيخ حسن البنا فلا نخطئ إذا اعتبرنا حميد الدين الفراهى أو عبد الحميد الفراهى - وكان يدعى بالاسمين - إمام الشعر السياسي العربى في شبه القارة.

١ - للاطلاع على فكر هذه الحركة انظر مؤلفات مؤسسها العلامة عنايت الله المشرقى خاصة كتابه «تذكره» طبع لاهور ١٩٨٠ .